ليلى المريضة في العراق

تأليف

الدكتور زكي مبارك

الجزء الثالث

الناشر
شركة نوابغ الفكر

الطبعة الاولى
1433هـ - 2012
حقوق الطبع محفوظة للناشر
شركة نوابغ الفكر
هاتف:25936402 ،فاكس: 27865553
E-mail: nawabgh_elfekr@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

زكى مبارك ، زكى بن عبد السلام بن مبارك ، 1891-1952
ليلى المريضة فى العراق : تاريخ يفصل وقائع ليله بين القاهرة وبغداد من سنة 1926 الى سنة 1938
- ط 1 – القاهرة : شركة نوابغ الفكر ، 2012
مج 1، 24سم
تدمك :978-977-5318-02-2
1- القصص العربية
ا- العنوان

ديوى :813

رقم الايداع :2012/14340

أنا في دمشق وطن ...

وطن من؟

لا أريد أن أفضح نفسي وقد سترني علام الغيوب ...

أكتب هذا في الساعة الثانية من صباح اليوم الخامس والعشرين من حُزيران بعد سهرة قضيتُها مع الموسيقار محمد عبد الوهاب.

فما الذي وقع بين أن أغفيتُ في صباح الخميس يوم فراق بغداد.

استيقظت في الساعة التاسعة تعبان، فعرفتُ أني حُرِمتُ نعمة الثواب في تشييع جنازة الدكتور سيف.

والتفتُّ إلى أمتعتي أحزمُها بعناية لأستعد للرحيل.

وكنت أنتظر أن أستقبل في صباح ذلك اليوم ليلى أو ظمياء، فلم تحضُر ليلى ولا ظمياء. وفي الساعة العاشرة طرق الباب طارقٌ فإذا هو رسول من قبل السيد جواد أبو الثُّمَن يسأل عن كتاب (يتيمة الدهر) فقلت: إني سلمته للسيد فخري شهاب.

وبعد لحظة طرق الباب طارق آخر فإذا هو رسول من قبل الدكتور شريف عُسيران يسأل عن كتاب (أمراء الشعر في العصر العباسي) فقلت: إني سلمته للسيد صادق الخفاف.

ولم أستقبل غير هذين السائلين يوم فراق بغداد.

وماذا يهمني من زيارة الزائرين بعد أن ضنت ليلى، وبخلت ظمياء؟

obeikandl.com

أهذا جزائي في العراق وحبِّهِ أهذا جزائي في رواحي وإسرائي

***

ورأيت أن أودع بغداد، وإن لم تودعني بغداد، فخرجت لزيارة السيد محمود فهمي درويش الذي طلب صورتي منذ يومين، فلم أجده في الدائرة، وإنما وجدت السيد جعفر خياط مدير دار المعلمين الريفية، فأظهر أسفه الصادق لفراقي ونقلني بسيارته إلى منزلي، المنزل الذي فارقته وأنا مفطور الفؤاد.

وكان عليّ أن أمر على معالي وزير المعارف وفخامة رئيس الوزراء: لأؤدي واجب التحية قبل الرحيل، ولكني قدّرت أن انشغال الوزراء بتشييع جنازة الدكتور سيف جعل الجو مشوبا بالكدر والانقباض.

انتظرت في المنزل ساعتين في قيظٍ فاتكٍ خانق، ولم أجد شهيةً لتناول الغداء، وتذكرني الجار العزيز فأرسل ماعونًا من البطيخ المثلوج فاستروحتْ نفسي بعض الاسترواح.

وصلت إلى المطار المدني في جو محرق لا ينتظر فيه صديق لقاء صديق، ومع ذلك رأيت في انتظاري جماعة من عيون أهل الفضل في بغداد فسلموا تسليم الشوق ورجوني أن أعفو عن تقصيرهم في واجبات المجاملة والوداد.

ونظر أحدهم فرأى الطربوش فوق رأسي فقال: ما هذا؟

فقلت: لأصحح نسبتي إلى مصر بعد أن جعلتني ليلى من صميم أهل العراق.

وقفنا نتحدث في شئون مختلفات منها جنازة الدكتور سيف، وقد أجمعوا على أنها كانت أروع منظر شهدته بغداد. والموتى يغبطون في بعض الأحيان!

وقبيل قيام السيارة بلحظات حضر شابّ من أقارب ظمياء هو ابن عمها عبد المجيد فتجلدتُ وتماسكتُ. ولكنه عرف كيف يغزو قلبي حين قال: أهذه آخر مرة ترى فيها بغداد؟

نعم، يا مجيد، هي آخر مرة أرى فيها بغداد، وهذا جزاء من يثق بعهود الملاح

سيسأل قومٌ من زكي مبارك ... وجسمي مدفون بصحراء صماء
فإن سألوا عني ففي مصرَ مرقَدي ... وفوق ثرى بغدادَ تمرحُ أهوائي

***

كنا في السيارة السريعة من سيارات نيرن، وكانت معي الغادة الموسوية التي شربتُ من يديها أكواب الشهد في إحدى ليالي بغداد، الغادة التي أوحت إلى قلبي ما أوحت وإن لم أنعم بلقائها غير مرتين، الغادة التي ذهبت تصطاف في دمشق لأن محبوبها في دمشق.

ركبتُ السيارة بقلبٍ مقتول، وركبت بوجدٍ مشبوب، وقد همّت بمواساتي وهممتُ بمواساتها، ولكن هيهات وكيف تستطيع أو أستطيع وقد وقذنا البرد بعد ساعتين؟

فما هي قصة ذلك البرد؟

كان مفهوما أن الحر سيؤذينا في الصحراء فاخترنا السيارة السريعة لأنها مزودة بالمراوح وما أعنف ما قاسيتُ من تلك المراوح!

كنتُ نسيت مع الأسف أني عرفتُ وجع المفاصل بسبب الليلة التي بتُّها في النجف أول مرة، فلما ركبتُ تلك السيارة أخذتُ أشعر بالبرد يتمشَّى في أوصالي، ونظرتُ فرأيت الغادة ممددة فوق مقعد مستطيل وهي تتلوّى من الألم، وهل كنت أستطيع ومعنا عشرون من الركاب أن أتمدد بجانبها عسانا نُفيق؟

ثم نزلنا بالرمادي فقضينا دقائق في المقصف.

شربت هي فنجانا من الشاي، وأكلتُ أنا قطعةً من الدجاج نزلت بالسم بسبب النظرات التي صوِّبت إليّ من الأطفال الجياع الذين يحيطون بأسوار ذلك المقصف.

ثم رجعنا إلى السيارة وقد اجتمعت برودة المراوح مع برودة الليل في البيداء.

وما هي إلا لحظات حتى تيقنتُ أن مفاصلي مزقت أعنف تمزيق.

هل أصرخ من الألم بين أولئك الناس وعلى مسمع من تلك الحسناء؟

وهل أبقى الدهر مجالا للدمع والصّراخ؟

شوتني خطوبُ الدهر شيا فلم تَدَعْ لمعتسفٍ حُلمًا إذا رام إبكائي

لم يبق عندي شك ساعتئذٍ في أن مفاصلي مُزقت، ولكن كيف، ذلك أمر يحار فيه العقل ثم خطر بالبال أن ذلك قد يكون رجعةً لصدمة الروماتيزم التي عرفتها بالنجف فهتفتُ:

- يا غلام، هات كأسا من الكونياك.

- ليس عندنا كونياك.

- وماذا عندك؟

عندي ويسكي

- هات كأسا من الويسكي

وما كدت آخذ من الويسكي رشفتين حتى شعرت بأن مفاصلي لا تزال سليمة وأن الذي وقع لم يكن إلا صدمة برد، فحمدت الله على نعمة السلامة وعرفتُ أن لي بقية من العافية أرشف بها صهباء الرضاب.

وصلت إلى دمشق هامد الجسم، خامد الروح، فلم أسأل الغادة أين نلتقي في المساء.

فواهًا كيف تجمعنا الليالي وآهًا من تفرُّقنا وآها

كان أحد أصدقائي في بغداد عَيَّن لي فندقا أنزل فيه بهذه المدينة وقال: إنه أرسل برقية إلى الشاعر أحمد الصافي النجفي ليلقاني بذلك الفندق.

ولكن وقع ما لم أكن أنتظر، فقد لقيت بالمحطة رجلا يتلطف في نقل أمتعتي إلى فندق داماسكوس، وكنت تعبان فلم أراجعه في نقلي إلى هذا الفندق.

وبعد أن استرحت لحظات خرجت أسأل عن مكتبة العلوم والآداب، مكتبة فرحات وهاشمي، لأقدم إليها النسخ التي اشتركت فيها من كتاب

«عبقرية الشريف الرضي» فرأيت دمشق تتحدث بقدوم الموسيقار محمد عبد الوهاب.

محمد عبد الوهاب؟

ومن الذي يسمع باسم محمد عبد الوهاب ويفكر في أحمد الصافي؟

أين عبد الوهاب؟

أين؟ أين؟

ها نحن أولاء نعتنق بعد فراق أرمض الأحشاء وأوجع القلوب.

ها نحن أولاء نستعيدَ الذكريات العِذاب لأيامنا في القاهرة وباريس.

ها نحن أولاء نذكر الأصائل والعشيات على ضفاف النيل.

ها نحن أولاء نتشاكى ونتباكى ونذكر مصايرنا في الحب، ونتوجع للنعيم الذي ضاع في غيابات الليالي.

نظرتُ إلى عبد الوهاب وأنا أدَمدِم:

«يا زَرْع بلدي، عليك يا وعدي»

وتذكرتُ موقفنا عند بحيرة أنجان، وتذكرت القصيدة التي نظمتها في الشوق إليه وأنا في قطار ليون إذ أقول:

يا أميرَ الغِناء تَفديك روحي ... من صُروف الهوى وجَور الغرامِ
أذبلتْ عُودَك الصبابة حتى ... عُدتَ مثل الخيال في الأحـلامِ
وغدَا صوتك القويُّ أنينًا ... باكي اللحن شاكي الأنغـــامِ
خُذْ دموعي فَنُحْ بها يا هَزارًا ... ذاب من قسوة الجوى والهيامِ

صدّني عن لقـــاك فيضُ حنيني ... لبلاد النخيلِ والآطـــامِ
قد دعتني مصرٌ فطار صـــوابي ... وتناسيتُ مُلهِمي وإمامي
وتجاهلتُ واجبي يوم تكريمكَ ... بين الأماثل الأعـــلامِ
أنا بالـــروح والفـــؤادِ صفيٌّ ... فتقَبَّلْ تحيتي وســلامي

***

عانقتُ عبد الوهاب حين لاقيته عناقا ضجّ له من رآه من صبايا دمشق، فالتفت إليهن وقال: نحن عُشّاق!

نعم، عشاق، عشاق، عشاق.

وهل في الدنيا عشقٌ أنضر وأروع من أُنس الأرواح بالأرواح؟

وأي قلب لا يتشرف بأن يخفق شوقًا إلى محمد عبد الوهاب؟

أي قلب لا يستهويه أن يكون له وجدٌ بهذا الروح الطاهر النبيل الذي يُحسن الإفصاح عن سرائر القلوب؟

إن محمد عبد الوهاب من أكرم الذخائر في الوطن الذي تنسم هواءه محمود البارودي وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي.

إن محمد عبد الوهاب هو الشاهد على أن مصر من بساتين الشعر والخيال.

حرسك الله يا عبد الوهاب وزاد روحك صفاءً إلى صفاء.

***

obeikandl.com

ومضيت مع هذا الروح اللطيف أزور من يعرف من عيون دمشق، فراعني أن أرى صورته مرسومة فوق كثير من الأرائك: أرائك المنازل الأمينة التي تثق بهذا الروح الأمين.

وإني لأعتقد أن عبد الوهاب أعجوبة بين أهل الفنون فهو شاب مهذب اللفظ، شريف الوجدان، وما اتصل به أحد إلا بهره ما فيه من سمو الأدب ودقة الذوق.

وكيف كانت ليلتي في صحبة عبد الوهاب؟

قضينا لحظات في شهود «فِلم: يحيا الحب» ثم أمضينا بقية السهرة في منزل الدكتور رمزي فردوس.

وما كدر هذه السهرة إلا لحظات صمت كانت تعتاد عبد الوهاب من حين إلى حين. وهذا الفتى لا يتصنع الوقار كما يتوهم من لا يفقهون، وإنما يعاني لحظات من الغيبوبة حين تمسه أطياف التلحين، وهو يخلو إلى نفسه من وقت إلى وقت من حيث لا يحتسب ولا يريد، هو يتلقى وحي التلحين كما يتلقى الشاعر وحي الخيال.

دخلت عليه ليلةً في منزله بالعباسية فوجدته في نشوة روحية فقلت: أتشتهي الآن أن تغني؟ فقال: أنا حين أطرب أشتهي ألحن.

وأيامي في صحبة هذا الروح بالقاهرة وباريس دلتني على معانٍ كثيرة من شمائل نفسه العالية وقلبه الخفاق.

وقد درست هذا الفتى دراسة وافية لأعرف السبب في نجاحه فرأيته يرجع إلى أنه يتناول جميع الأمور بطريقة جدية، حتى الحب يراه عبد

الوهاب لونا من ألوان الجد الرزين، وهو لا يعاقر كأس الحب إلا ليواجه أسرار الوجود.

وعبد الوهاب مؤمن بعظمته الفنية ويتسامى إلى الخلود في عالم الفنون، وهو من أجل ذلك يحرص على سلامة صوته أشد الحرص، فهو الفنان الوحيد الذي لا يدخّن ولا يشرب الخندريس.

والناس يقولون: إن شوقي وجهه في مطلع حياته الفنية، وهذا حق، ولكن من الحق أيضا أن عبد الوهاب وجهه شوقي إلى أفانين من البيان: فعبد الوهاب صاحب الفضل في إقبال شوقي في أعوامه الأخيرة على الأناشيد الغنائية، وقد هتف شوقي باسمه عند الموت.

***

وليس في عبد الوهاب إلا عيبٌ واحد: هو التقصير في تلحين الشعر الفصيح.

وقد حاول ذلك فنجح في قصائد معدودات، ولو أنه صبر على هذا الفن لأتى بالأعاجيب. أقام عبد الوهاب في العراق نحو أربعة أسابيع، وكانت هذه المدة كافية لأن ينقل إنشاد الشعر عن أهل العراق، ولكني علمت أنه لم يعرف دار ليلى ولم يمرّ بشارع العباس بن الأحنف، فكان مصيره مصير بعض المصريين الغافلين الذين يزورون بغداد ولا يستوحون ليلى المريضة في العراق.

وماذا يحسن العراقيون في التغني بالشعر الفصيح؟

الحق أني لم أفهم قيمة الأخبار المبثوثة في كتاب الأغاني إلا بعد أن زرت العراق.

وإذا كان المغنّون المصريون لم يستطيعوا أن يعيدوا عهد معبد والغريض في إنشاد الشعر الفصيح فأهل الفن بالعراق لا يزالون قادرين على إحياء ذلك الفن الجميل.

سهرتُ ليلةً في منزل السيد عبد الوهاب الأمين مع جماعة من الرفاق منهم السيد يوسف رُجيب وكان معنا رفيق نسيت اسمه مع الأسف، ولعله يسمى عبد الله، وفي نهاية السهرة انطلق ذلك الرفيق يتغنى بالشعر الفصيح غناءً يبعث الغافيات من سرائر القلوب، وخرج ذلك الرفيق معي فركبنا سيارة عمومية وهو يغني، فنسي السائق الطريق وأخذ يدور ذات اليمين وذات الشمال في أضاليل الرصافة، سقاها الحب، ودام الحال كذلك نحو ساعتين حتى خشيتُ أن يُقتل ذلك الرفيق وهو في حومة الغناء.

وفي تلك اللحظات تذكرت المغني محمد عبد الوهاب الذي عجز عن تلحين قصيدة:

«ساعة حُبّ»

وهي القصيدة التي يقول فيها شاعر سنتريس:

يا مَليكَ الحُسنِ عزَّتْ دَوْلتُكْ ... وَرَعتْ آلهةُ الحبِّ صِبـــاكْ
شِرعةُ الإسعادِ فينا شِرعَـتُكْ ... وهُدَى الإشفاقِ والعطفِ هُدَاكْ

***

أنتَ أنقذْتَ فؤادِي مِن جَوَاه ... وسَقَيْتَ الرُّوحَ أكوابَ الصَّفاءْ
آنَ أنْ يَنْسَى فؤادي ما شَجاهْ ... نَسَخَ الإقْبالُ أيامَ الشقـــاء

***

ساعة مرتْ وفِي القلبِ هَوَاكْ ... ساحِرَ النَّغمةِ خَفَّاقَ الجَنـاحْ
يرْشُفُ اللَّثْمَةَ من كأس لمَاكْ ... فِي ظلالِ الأُنسِ والصَّفْوِ المُتاحْ

***

سكَبَتْ نَجواكَ في الرُّوح الأمانْ وأراني الوصلُ أسرارَ جمالِكْ
فتَمثَّلتُ فراديسَ الجنـــــانْ ورَأيتُ الخُلدَ مَنْضُورَ وصالكْ

***

وَقَفَ النَّجمُ وَألقَى بالَـــــهُ ليَعُدَّ اللَّمحَ من قلبي وقلـــبِكْ
وَيحَ هذَا النَّجمِ مِمَّا هالَـــهُ فِي ضَمِير الليلِ من حُبِّي وحُبِّك

***

غارتِ الأنجُمُ مِن قلبي الطَّرُوبْ مَا يقولُ النَّاس لو شامُوا غرامي؟
أنا بالأفنانِ فَتَّاكٌ لَعُـــــوبْ يزْدهيني الغَيُّ في تِيهِ هُيامِي

***

شُبهةٌ فِي قَلبكَ البِكْرِ يَلُوحْ طيفُها المرتابُ في إنسانِ عَيْنِكْ
أنا يا مَوْلاي لَوْ تعلمُ رُوحْ يَهْصِرُ المطلـولَ من مائِدِ غُصْنِك

***

تنظُر الساعةَ من حِين لحِينْ ليتَ شِعرِي ما الذي يَستَعجِلُك
إنَّ هذا الوصلَ أحلامُ سِنِينْ فاتَّقِ الحُـبَّ ودَعْ مَا يَشغَـلُكْ

***

ومع تقصير محمد عبد الوهاب في تلحين الشعر الفصيح فأنا أعطف عليه أكرم العطف، وأذكر بالحمد والثناء أنه رفع الفن المصري في الأقطار العربية والإسلامية.

ولو كانت أم كلثوم تملك ما يملك عبد الوهاب من القدرة على التلحين لأغنت الشعر الفصيح عن دلال هذا الصديق العزيز.

أكتب هذا وصوت أم كلثوم يملأ أجواز الفضاء في دمشق، ولعله يصنع مثل ذلك في بيروت والقدس وبغداد والبصرة والموصل وتونس ومراكش والجزائر والخرطوم.

أكتب هذا وبجانب الفندق الذي أقضي فيه هذه الليلة دارٌ يغتبق أهلها بصوت أم كلثوم بعد نصف الليل.

وماذا أقول في أم كلثوم ؟

إن مصر –حيا الله مصر– لم يُذع اسمها كاتب ولا شاعر كما صنع صوت أم كلثوم. وهذا كلام قد لا يرضاه الأستاذ محمد خالد الذي عتب عليّ حين سمعني أخطب يوم ظهر فِلم (الغندورة) للسيدة منيرة المهدية، فقد راعه أن أقول: إن الفنانين المصريين يذيعون محامد القومية المصرية.

فهل يكتب الله لمثل هذا الصديق أن يشرِّق أو يغرِّب ليرى الخدمات التي يؤديها صوت أم كلثوم للأمة المصرية؟

هل يكتب الله لمثل هذا الصديق أن يزور بغداد ليرى أن أهل العراق يرون أن النشيد القومي المصري يجب أن يكون «نشيد الجامعة» الذي لحنه الفنان رياض السنباطي وغنته الحمامة الموصلية أم كلثوم؟

***

وماذا لقي الفنانون عندنا من عناية النقد الأدبي والفني؟

كل ما غنموه أن يقال إنهم يذيعون ثقافة البكاء والأنين!

فهل يفهم النقاد أن النفس الإنسانية لها مآس وأشجان، وأنها في حاجة إلى مُواسين من صوت أم كلثوم وعبد الوهاب؟

هل يفهم النقاد أن الفنانين المصريين أفصحوا عن عواطف يحسها الناس في كل مكان؟

هل يفهم النقاد أن الحزن علامة قوة لا علامة ضعف؟

هل يفهمون أن الحزن هو الشاهد على أننا نفهم قيمة ما نفقد؟

اعرفوا هذا، أيها النقاد، لتقدروا حزني على فراق ليلاي.

اعرفوا هذا لترحموني يوم يطول إلى ليلى حنيني.

وكيف أستجديكم العطف وأنتم غلف القلوب؟

كيف أستجديكم الرفق وقد حرمكم الله نعمة الضلال في هوى العيون السود.

***

أنا في دمشق وطن ...

وطن من؟

لا أريد أن أفضح نفسي أكثر مما افتضحتُ.

فأين تعيش الإنسانة التي ذهبت إلى بغداد وفي جيبها مسدس لتقتل ليلاي في العراق؟ أين تعيش؟ وفوق أي سرير تنام؟

لقد هددني زوجها بالقتل إن سألتُ عن بيته حين أمرّ بدمشق.

وكنت أستطيع أن أدخل دمشق ومعي جيش من قومي في العراق، ولكني صفحتُ وغفرتُ.

حسبتُم هذه الدنيا تضيق برحبها عنّا
فصرتم كلما جئنا نَفَرتُم جَهرة منّا

أسأتم إذ تبرمـــتم بهذا المغرم المضْنَى
وجُرتم حين غيرتم بصدق ولائه الظــنا
ولو أنصفتمُ قلتم: أديبٌ يعبد الحسْــنا

فما ذنبي عندكم يا بني دماشق بن قاني بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح؟

ما ذنبي عندكم وقد أذعتُ محاسن الشام في بغداد؟

ما ذنبي عند صاحبة العينين ولم أشرب على وجهها غير مرة واحدة في قِطار الحِلة؟

أيكون ذنبي عند زوجها أن تفرح بلقائي يوم سدّة الهندية؟

لا تغضبوا ولا تعتبوا، يا بني دماشق، فلم أبت في مدينتكم غير ليلتين، وقد أفارقها إلى غير معاد.

وهل يسمح الدهر لرجل مثلي أن يستوحي العيون في دمشق حين يشاء؟

إن أهل دمشق يحترسون مني كما احترس أهل بيروت.

وهو كذلك.

ولكنكم ستجنُون عواقب ذلك بعد حين.

ستطلبون وتلحون أن أرجع إلى اجتلاء المحاسن في هذه البلاد.

وهل ترونني أقل من حسان بن ثابت الذي رقم اسم بردى على جبين الزمان؟

نحن الشعراء، يا بني دماشق، وعداوةُ الشعراء بئس المقتنى، كما قال المتنبي. فكيف تجنُون على أنفسكم بمكايدتي؟

أمثلي يمرّ على دمشق وبيروت ثم يخرج سليم القلب؟

ستندمون، ثم ستندمون!!

***

آه، ثم آه!!

دخلت دمشق وأنا محزون، وسأفارقها وأنا محزون.

ولكن لا بأس فسأسافر بإذن الله إلى السودان.

ألم أتلق في بغداد عشرات الخطابات من ليليات السودان؟

إن أهل السودان من عيون العروبة وفيهم شمائل من النبل والكرم والذوق، وهم من قراء مؤلفاتي، المؤلفات التي نظمتها من حبات قلبي.

فإن تجنت عليّ الوجوه الشقر والبيض فسأنعم بإذن الهوى في ظلال الوجوه السُّمر والسود.

سأذهب إلى قومي في السودان، السودان الذي تناسيناه ونحن آثمون.

سأذهب إلى البلاد التي فيها منابع النيل.

سأذهب إلى الخرطوم التي خلدها صاحب «ليالي سطيح» الخرطوم التي تنسم هواءها حافظ إبراهيم أظرف رجل رأته عيناي.

سأذهب إلى الخرطوم التي عزّ عليها أن أقصر هواي على القاهرة وباريس وبغداد. سأزور الأماجد من أهل السودان الذين كانوا ولا يزالون أصدق الحافظين لعهد القرآن.

سأبني بيتًا في دارفور لأستطيع أن أقول: إني وفيتُ بالعهد للعروبة المصرية.

سأكتوي بقيظ السودان كما اكتويت بقيظ العراق.

سأنشر كتابا عن «ذكريات الخرطوم» كما نشرت كتابا عن «ذكريات باريس».

***

غدا أفارق دمشق، ويا لوعة القلب من فراق دمشق!

وكنت أحب أن أمر على بيروت مرة ثانية، ولكني أخشى أن أواجه الأدباء هناك بما لا يحبون، وهم قومٌ ليس فيهم إلا فضيلة واحدة: هي أنهم يشتمونني باللغة العربية!

وما ذنبي حتى أشتم باللغة العربية أو اللغة الفرنسية؟

ما ذنبي وأنا أذيع المحامد العربية في كل بلد أحُل فيه؟

لقد قضيتُ في بيروت ليلة واحدة، فكانت تلك الليلة فرصةً لهيام الأقلام في شهور طوال؟

إن كان مثلي يشتم في بيروت فغضبةُ الله والحب على بيروت!

***

غدا أفارق دمشق، لأمر بفلسطين وأجيب دعوة الأستاذ إبراهيم طُوقان في مناجاة ليلى فوق منبر الإذاعة اللاسلكية بالقدس الشريف.

إلى القدس، إلى القدس.

إلى وطن العيون التي أسرتني في غزة وفي اللد وفي ...

أنا في حيفا وقد شعرت في كتابة هذه الكلمات قبل منتصف الليل: لأشعر أني استوحيت فلسطين.

فما هي قصتي مع فلسطين؟

قبل أن أسافر إلى العراق نصحني الناصحون بأن أسافر في الطيارة من مصر الجديدة إلى بغداد. فإن لم يرقني ذلك فلأسافر بالبحر من الإسكندرية إلى بيروت. ثم أمتطي سيارة إلى دمشق ثم إلى بغداد، ونهاني أولئك الناصحون عن عُبور فلسطين: لأن الثورة كانت جُنّتْ، وكان نسفُ القطارات من بعض ما يصنع الثائرون.

ولكني رفضتُ ذلك النصحَ الجميل وأبيتُ إلا عُبُور فلسطين لأرى اللدَّ التي وردت في أبيات رواها صاحب الأمالي، ولأرى غزّة التي قال أحد شعرائها القدماء:

قالوا تركتَ الشعر قلتُ ضرورةٌ ... باب البواعثِ والدواعي مُغْلَقُ
لم يبق في الدنيا كريمٌ يُرتَجَى ... منه النوالُ ولا مليحٌ يُعشَقُ
ومن البلية أنه لا يُقتنَى ... ويُخانُ فيه مع الكساد وَيُسرَقُ

وكذلك تخوّف المصريون الذاهبون إلى العراق من عبور فلسطين، وتفرَّدتُ بعبور فلسطين في لحظات تموج بالدماء، ولطف الله فلم يُصِب القطارَ الذي امتطيته مكروه.

وغنِمتُ إمتاعَ عيني برؤية البلاد التي يَحتَرِبُ في سبيلها العرب واليهود.

وبعد أن أديتُ واجبي في العراق وفكرتُ في الرجوع إلى وطني وأبنائي كانت سبقتني دعوةٌ من الأستاذ إبراهيم طُوقان لإلقاء محاضرة في الإذاعة الفلسطينية في الأسبوع الأخير من حُزيران، وحدثتُ الدكتور الجمالي بذلك فنهاني عن عبور فلسطين، وكانت الثورة زادت بلاء إلى بلاء.

ولكن هل ينتصح رجلٌ مِثلي حين ينهاه الناصحون؟

هيهات! هيهات!

***

ومضيت لأخذ تذكرة من شركة نيرن فطلبوا جواز السفر فقدمته، فلما نظروا فيه أعلموني أنه يحتاج إلى تجديد لدخول دمشق، ولم أكن تأملت ما كُتب فيه بالفرنسية، فأعطيتهم ما طلبوا ليجددوه.

وبعد أن بتُّ في دمشق ليلةً كان من واجبي في صباح اليوم التالي أن أمرّ على مكتبة (فرحات وهاشمي) لأقدم إليهم النسخ التي اشتركوا فيها من كتاب (عبقرية الشريف الرضي) فتلقاني أصحاب المكتبة بالترحيب، وتفضل شاب مهذب اسمه شفيق بالتطوع لمصاحبتي إلى أن أبرح دمشق —ولم يكن بيني وبين مبارحتها غير ساعات— وما كدت أبدأ الحديث مع ذلك الشاب المهذب حتى قال: هل جددت جواز السفر لعبور فلسطين، يا دكتور؟

obeikandl.com

فتذكرت ما وجب عليّ في بغداد من تجديد جواز السفر لدخول دمشق، وأسرعنا إلى المفوضية الإنجليزية.

فماذا صنعنا هناك؟

انتظرنا ساعتين أو ثلاث ساعات كانت أثقل على قلبي من الجبال، ولم يخفف تلك الساعات إلا الأنس بحديث فتى من فلسطين اسمه بهاء الدين بيبي، شقيق تلميذي القديم رشاد بيبي، و(بيبي) نسبة إلى الباب إحدى قُرى حلب، وإليها ينسب البابي الحلبي، وتلك فائدة لغوية تستحق التدوين.

وبعد ذلك الانتظار الذي لم يخفف من ثقله غير صُحبة شفيق وبهاء الدين عرفتُ أن جواز السفر لا يحتاج إلى تجديد.

وعندئذ تذكرت خطر العناد الفظيع الذي حرمني تعلّم اللغة الإنجليزية، فقد كنتُ أحب أن أشهد أهل المشارق والمغارب على أن المصري يستطيع أن يكون في وطنه أعظم الرجال بدون أن يتعلم الإنجليزية، لتسقط حجة الإنجليز حين يزعمون في أوروبا أن لغة المصريين هي الإنجليزية «؟!».

ولو كنتُ أعرف لغة الإنجليز لنجوتُ من مرارة الانتظار في تلك الساعات الثقال، ولرحمتُ شابا مثل شفيق من أن يعاني في صحبتي تلك الساعات المضجرة في وقت قائظ عصيب.

اطمأننتُ إلى أن جواز السفر يبيحني حق عبور فلسطين فامتطيت سيارة إلى حيفا، بعد أن زودت نفسي بألوان من الفواكه الشامية.

وما كدت أخرج من الشام وأدخل فلسطين حتى رأيتني مسئولا عن جواز السفر في محطة تسمى «بنات يعقوب» وطلب المراقبُ الإنجليزي جواز السفر ليختبره ثم رجع بعد لحظة فأفهمني أنه يحتاج إلى تجديد وأنه لا مندوحة من رجوعي إلى دمشق لتصادق عليه المفوضية الإنجليزية.

كلمت ذلك المراقب بالفرنسية وأفهمته أني قضيت بالمفوضية الإنجليزية ثلاث ساعات إلى أن أفهموني أن الجواز لا يحتاج إلى تجديد، وأكدت له أن رجوعي إلى عاصمة الشام غير ممكن، لأن جيبي خلا من المال ولا أستطيع الاتفاق مع السائق على أجر جديد.

فتردد المراقب الإنجليزي لحظة ثم قال: انتظر حتى أخاطب المحطة المقبلة بالتليفون، ثم رجع فقال: دبر أمورك مع المحطة التالية!

وفي المحطة التالية وقفت وقدمتُ الجواز، فاختبره الموظفون هناك ورأوا أنه لا يحتاج إلى تجديد.

أشهد أن بنى آدم بلا عقول!

وأشهد أن الإنجليز ناس كسائر الناس قد يقرءون فلا يفقهون!

وأشهد أني جنيت على نفسي حين اكتفيت بمعرفة اللغة الفرنسية، وكان في مقدوري أن أتعلم الإنجليزية بجانب الفرنسية لأستطيع التفاهم مع جميع «أصدقائنا» في الشرق.

ولا تجيء المصائب، إلا من الحبائب!

لم يكن لي مأربٌ من زيارة فلسطين إلا تنسم هواء البلاد التي مكّنت الإنجليز من أن يكونوا دواهي السياسة في العصر الحديث.

فأنا أعتقد أن معضلة فلسطين ليست إلا فخا ينصبه الإنجليز ليُبَلْبِلوا الأمم العربية والإسلامية، وإلا فمن الذي يصدِّق أن الإنجليز يعجزون عن إقرار الأمن في بلاد لا يزيد سكانها عن بضع مئات من الألوف؟

أنا أعتقد أن الإنجليز يصانعون العرب ويصانعون اليهود ليشغلوا الأمم العربية والإسلامية بشاغل لطيف يصرفهم عن التفكير في شواغلهم المحلية.

وهذا الكلام يعدُّ كفرا في نظر المغفلين الذين لا يدركون مرامي السياسة الإنجليزية.

وما أحب أن أزيد!

***

وصلت إلى حيفا فسألت عن الأستاذ عبد الكريم الكرمي فلم يعرفه أحد.

ثم سألتُ عن الأستاذ أبي سلمى فعرفه الجميع!

وهناك ندمتُ على الوقت الذي ضيعته في دراسة «الكُنية» يوم كنت مشغولا بتأليف كتاب «النثر الفني» فلو أني كنت زرت العراق أو فلسطين قبل ذلك لاستغنيت عن تلك الأبحاث الطوال.

الكُنية هي أساس التعريف في العراق: فأبو هاشم هو طه الراوي، وأبو ليث هو فاضل الجمالي، وأبو صباح هو نوري السعيد، وأبو مفيد هو إبراهيم حلمي، وأبو ليلى هو زكي مبارك!

أحبك يا ليلى وسأهتف باسمك في كل مكان.

أحبك يا ليلى؛ وسأذكر أني خرجت من دارِكِ غضبان.

أحبك يا ليلى، وأعترف بأني أستحق وأستأهل كل ما طوقتني به المقادير.

ألم تكوني بين يدي؟ ألم أكن أملك من أمرك كل شيء؟

ألم يكن زمامُك في يدي لو كنتُ أحسن التصرف فيما أملك؟

ليلى، ليلاي.

لم يكن طبيبك من الغافلين، وإنما كان من الأمناء.

لقد قبلتِ يدي مرة أو مرتين أو مرات، وكان في ذلك إيذان بأن من حقي أن أقبل جبينك المُشرق وخدك الأسيل.

فهل ترينني فهمتُ أو عقلتُ؟

ليلى، ليلاي.

سيطول ندمي على ما ضيعتُ من الفرص السوانح، وسيطول بلائي كلما تذكرتُ أن غرامي في بغداد لم يكن إلا حُلما تبدد وأملا ضاع.

لقد نصبت الشباك لاقتناصي ألف مرة، ثم نجوتُ من تلك الشباك، فوا كرباه من تلك النجاة!

جنَتْ عليّ الليالي غير ظالمةٍ إني لأهلٌ لما ألقاهُ من زمني

توهمتُ أن من واجبي أن أتصوَّرك نَفحة روحانية تعزُّ على إدراك الناس.

وأنتِ والله كذلك، وإن تبذلتِ طائعةً في هواي.

اذكري يا ليلى أني صنتك صيانة كريمة، وأني رأيتك فوق الشهوات والأهواء، فلم أمسّك بسوء، مع أني من العارمين.

اذكري يا ليلى أنك اقترحت أن تعينيني على ليل بغداد فرفضتُ.

اذكري يا ليلى أنك اقترحت أن تكوني نور بيتي فأبيتُ.

اذكري يا ليلى أني من أجلكِ عشتُ عُذري الهوى في بغداد.

اذكري يا ليلى أن بلدكم لم يعرف قلبًا أشرف من قلبي وإن كَثُر المدّعون.

اذكري يا ليلى أن هُيامنا الطاهر النبيل في ضواحي بغداد.

اذكري يا ليلى أني خرجت من دارِكِ غضبان، ولن أعود.

إيش لون يصير؟

ما أدري كيف أصبر على فراق بلدٍ أنتِ نورهُ الوهاج!

ما أدري كيف أهجر العراق إلى غير معاد!

ومن يضمن أن تذكريني بالخير بعد الفراق؟

كان العذال يقولون ... ويقولون ... ويقولون ...

فهل يعرف العذال أنك ستمضغين عرضي كما يمضغ الظبي عُود الأراك؟

إن سمعتي بين يديك يا محبوبتي الغالية، فاصنعي بها ما تشائين.

كوني سِنادي، يا ليلى، يوم يتقوَّل المرجفون.

كوني سنادي، يا ليلى، يوم يُرجف المتقولون.

قولي الحق، يا ليلى، هل شهدتِ على محبوبكِ الغالي ما يُعاب؟

هل رأيتِ منه غير الكرم والصدق والنّبل؟

أنا أعرف ما جنيتُ على نفسي يوم تعففتُ وتصوَّنتُ.

ولكن من الظلم أن يكون العفاف بابًا إلى الخسران.

قولي فيّ كل شيء، إلا تهمة الإثم والفسوق.

وما أشد ندمي على أن أسلم في هواكِ من الإثم والفسوق!

كنتُ مخلصًا، يا ليلى، فيما اخترتُ لنفسي من التصوُّن والعفاف.

وأقسم بالله وبالحب أني ما تركتُ حظوظي من جمالك الفضاح إلا لأني رأيته أعظم وأشرف من أن تخوض فيه هواجس الظنون.

أنت يا محبوبتي «حليوة» كما كانت تعبر ظمياء.

ومن حق «الحليوة» أن تصان عن الأهواء الفواتك.

لقد استطعتُ وأنا غَوِيّ أثيم أن أصونك عن الدنس والرجس، فتصوَّني يا ليلى عن الدنس والرجس، واقضي دهركِ كله وأنت مصونة بتول.

إن قلبي يكاد ينصهر من الغيظ كلما تصورتُ أن نورك الوهاج قد يجتذب إليه فُضول الفراش.

فارحميني يا ليلى من هذه الغيرة القتالة التي تبدد رشدي، وتسحقُ قلبي.

ارحميني يا ليلى فإني أخشى أن أموت وأنا من الغاضبين.

ولك الويلُ إن متُّ وأنا عليكِ غضبان!

***

فكرتُ في عصر اليوم في التنزه بحيفا فسألتُ عن أجمل حيّ في المدينة فقيل أنه حي العزيزية، ثم قيل: إن ملاهيه ستُقفل في المساء بسبب الثورة. وليست حيفا في ثورة ظاهرة، ولكن التعادي بين العرب واليهود يسبب حوادث كثيرة في كل مساء.

وكذلك اكتفيتُ بالطواف في الحي الذي تقع فيه المحطة وفندُق السنترال.

***

وفي ذلك الحي جلستُ على قهوة بعد الغُروب لأجتلي وجه الحياة في حيفا، فأقبل شابٌ يقول:

- حضرتك من الإسكندرية؟

- أنا من القاهرة.

- ولكني أتذكر أني رأيتك في الإسكندرية.

- قد يكون ذلك: فلي بالإسكندرية صِلات.

ودعوته إلى الجلوس فلم يرفض، ثم قال:

- ظننتك أول الأمر أجنبيا.

- ماذا تعني؟

- لأنك تجلس على قهوة أجنبية.

- هذه قهوة أجنبية؟

- نعم، لأن أصحابها يهود.

وكذلك يرى العرب أن اليهود أجانب في فلسطين.

واقترح الشاب أن نزور معًا بعض الملاهي فقمتُ معه وأنا متهيب، وكنتُ أحب أن أدرس بعض الشمائل من حياة المرح في هذه المدينة، ولكني لم أستطع أن أدخل الملاهي: فقد خشيتُ أن أرى ما أكره في ليالٍ لا يسهر فيها إلا المعربدون.

وحاول الشاب أن يقنعني بأنه مصري وأن ضميره لا يبيحه أن يقودني إلى مواطن الشبهات، فاعتذرتُ بتلطف وانسحبتُ.

***

obeikandl.com

لم أجد في حيفا مجلة مصرية، على كثرة ما بحثتُ، ولعل ذلك لأني دخلتها في أيام الهياج، ومع تجهُّم حيفا بسبب الفتن فقد رأيتها مدينة جميلة، بغض النظر عما لمائها من طعم ممجوج.

وقد تأملت «ورقة الفندق» التي تسمى «قائمة الحساب» فرأيتها تذكر بورقات الفنادق في دمشق: فهي تنص على أنواع الشراب.

ولذلك دلالة يدرك قيمتها الباحث الاجتماعي.

***

في مثل هذه الساعة من الليلة المقبلة سأكون بإذن الله في مصر بين أهلي وأبنائي. ولولا الشوق إليهم لمضيتُ إلى القدس وناجيتُ ليلى على منبر الإذاعة الفلسطينية، إجابة لدعوة الشاعر إبراهيم طُوقان.

فيا أيها القدس الشريف.

سلام عليك من شاعر يعرف فضلك في إحياء القلوب.

سلام عليك من مؤمن يعرف فضلك في إيقاظ الأرواح.

ويا إخواني في القدس.

لا تحسبوني نسيتُ العهد.

***

هنا القاهرة!

هنا القاهرة!

هنا القاهرة!

إلى ذراعي، يا عروس الشرق.

إلى ذراعي، يا جنية النيل.

إلى ذراعي، يا وطن ليلى المريضة في الزمالك.

إلى ذراعي، يا ملاذ كل خائف، ومأمن كل ملهوف: فقد مرت أجيال وأنت المأوى الأمين لكل من تضيق عنه بلاده من أحرار العرب والمسلمين.

إلى ذراعي، يا وطن الشاعر الذي قال وهو يخاطب قلبه المفطور في باريس:

ستأسُو عذارَى النيل آصار ما جَنتْ عليك عذارَى السينِ حِين تعودُ

***

امتطيت القطار من حيفا إلى القنطرة ورأسي معمور بما كنت شاهدتُ في فلسطين من معالم الوقائع الإسلامية فقد شهدتُ المكان الذي وقعت فيه واقعة حطين، وقد أقمت لحظة لاهية على شاطئ بحيرة طبرية، وبقي أن أمتع البصر بما سأراه من بساتين فلسطين وأنا ماض إلى القنطرة. وخفق القلبُ حين مررتُ على رفح، فقد كنتُ موعودا بزيارتها حين اعتقلني الإنجليز أيام الثورة المصرية، وهو اعتقال دام مدة أطول من المدة التي قضيتها في سجن ليلاي بالعراق!

وما كدت أصافح قناة السويس حتى دخلتُ مع المصريين في قِيل وقال حول فاجعة بغداد، ودام ذلك الجدل ساعات إلى أن حان موعد

قطار القاهرة، فأسلمتُ نفسي إلى هدوءٍ مُزِيح لأستعد للسَّمر مع أبنائي ليلة الوصول.

كدتُ أُجنُّ حين رأيت محطة باب الحديد، المحطة التي يتخطر فوقها الظباء في كل وقت، والتي شهدت ألطف التحيات، وأعذب القُبُلات، المحطة التي كان مقصفها موعد غرامي يوم كنتُ موصول القلب بأفنان الجمال.

لم يستقبلني أحدٌ على محطة باب الحديد لأني وصلت على غير ميعاد.

وأخذتُ سيارة إلى منزلي بمصر الجديدة فوجدت أطفالي:

يناجون في الأحلام أطياف والدٍ لعهد بنيهِ والبُنيَّاتِ نَسَّاء

وكانت دقة واحدة من الجرس كافية لأن يطرب جميع أهل البيت.

قالت زوجتي وهي تبكي من الفرح: ما كنتُ أحسب أني سأعيش حتى أراك!

فقلت: أنتم تفلون نشاطي بهذا الحنان المزعج، ألم تكف الرسائل التي أرقتم بها جفوني في بغداد؟

وفتحتُ الحقائب فأخرجتُ التحف المهداة من البصرة والموصل.

وكان في نيتي أن أقدِّم قلبي، ولكني خشيت أن تفطن زوجتي إلى أن ليلى لم تترك منه غير أشلاء!

ثم سألتُ سليمان عن أحوال القاهرة فقال: كان مقالك في الأهرام عن فاجعة بغداد شغل الناس بالأمس.

وقدّم إليَّ جريدة الأهرام فرأيت مقالي في الصدر، فقرأته بلهفة وشوق: لأني أعتقد أنه أنفع مقال كتبته في حياتي.

ولكني رأيت في العدد نفسه ما آذاني: رأيت كلمة للصديق أحمد الصاوي، وهي نموذج من التحامل الفظيع على أهل العراق.

فكيف استباحت جريدة الأهرام أن تنشر تلك الكلمة في أعقاب فتنة نكراء؟

إن جريدة الأهرام أحسنت في الاحتفاء بمقالين لأنه مقالٌ كتبه رجلٌ شهد بعينيه فاجعة بغداد، ولكنها أساءت بنشر كلمة الصاوي، الكلمة الجافية التي خلت من العقل ومن الذوق.

***

أوى أطفالي إلى مضاجعهم بعد الأنس بأبيهم، وبقيتُ سهران أفكر في الرد على الصاوي، وقد انتهيت بحمد الله من إنشاء كلمة تُفحمه وتردّه إلى الصواب.

***

هذا مساء اليوم الثامن والعشرين من شهر حزيران.

فما الذي صنعتُ؟

قضيت اليوم في الاستخبار عن أحوال أهلي في سنتريس، وتغديتُ مع أبنائي بعد طول الغياب. وبعد المغرب مضيت إلى جريدة الأهرام لأقدم إلى الأستاذ أنطون الجميل مقالي في الرد على الأستاذ الصاوي، فنظر فيه مرة ومرتين، ثم قال: الأفضل أن نغلق هذا الباب لأن الصاوي كتب مقالا في الرد على مقالك الذي نشرناه منذ يومين، والفتن تزداد ضراما بكثرة التقليب.

وما الذي في مقالي من الخطأ حتى يحتاج إلى ردّ؟

هذا والله أغرب ما رأت العيون!

***

وخرجتُ لأسلم على الأصدقاء الذين يسمرون في بار اللواء فوجدت الصاوي هناك، فاستقبلني بثورة مجنونة دلتني على أنه كان ينتظر جنازة يلطم فيها حتى يشبع، وهل يجد فرصة أنسب من جنازة الدكتور سيف؟

وما عسى أن أصنع في تقويم هذا الصديق؟

لقد طاف بالخاطر أني أعرف الصاوي منذ سنة ١٩٢١ يوم كان يدعوني لمعاونته على فهم ما يعجز عن فهمه من النصوص الفرنسية، وكان يتسامى إلى ترجمة بعض روايات أناطول فرانس.

ثم وثب الخيال فتذكرت أيامنا في باريس يوم كنا نتواعد على التلاقي في المكتبات لنوفر تكاليف التلاقي في الأندية والقهوات.

أينسى الصاوي اللئيم هذه الذكريات العِذاب ليراجعني بلا بينة في بار اللواء؟

كنتُ أستطيع أن أناضله لو شئتُ، ولكني رأيت التلطف معه أفضل وأنفع، لأخفف غضبهُ على العراق، والتلطف مع الأصدقاء القدماء من أشرف ما يتحلى به كرام الرجال.

وتذكرت أن الصاوي يؤدي مهنةً صحفية، والصحفيون، يؤذيهم السلام، لأنه يقلل عدد القراء، فمن واجبه نحوَ مهنته أن يصرخ ويستغيث ليزيد عدد القراء ألفا أو ألفين! ولكن التهويل في فاجعة بغداد يباعد بين أمتين شقيقتين هما مصر والعراق.

وما يجوز أن نفرح بالمغانم العاجلة حين تكون بابا إلى الخسران.

***

وأخذت الصاوي من يده وانتحينا ناحية ثم قلت: اسمع، يا صديقي، إنه لا يجوز لك أن تكتب حرفا واحدا عن العراق قبل أن تستشيرني: لأني قادمٌ من هناك، وما راءٍ كمن سمع. فاطمأن لكلامي وانصرفنا بسلام.

علمت أن جريدة المصري كتبت كلمة قالت فيها: إن أهل العراق كتبوا في جرائدهم عبارات تشهد بأنهم يرون أن الشاب الذي اعتدى على محمود عزمي وحسن سيف «بطل» وقد تأذى الجمهور المصري بذلك، فأخذتُ أُفهم كل من أُلاقيهم أن كلمة «بطل» صارت كلمة اصطلاحية يراد بها النص على الشخصية الأساسية في الحوادث، وهو اصطلاح نقلناه عن اللغات الأوربية.

وجريدة المصري نفسها تكتب في كل يوم عبارات من هذا النوع وهي تتحدث عن اللصوص وتجار المخدرات، فما تعبر به صحف مصر تعبر به صحف العراق.

تفضل الأستاذ أحمد أمين بزيارتي عصر اليوم فوجدته سمعَ كثيرا من الأخبار المتصلة بفاجعة بغداد، وقد عرفتُ من لحن القول أن بعض خصوم محمود عزمي انتهزوا الفرصة وطوقوا اسمه بأغلال من الأراجيف، وقد حدثت الأستاذ أحمد أمين بكل شيء ليطمئن، وليعرف أن أسباب الحادثة أهون مما يشيع المرجفون.

***

قابلني اليوم سعادة الدكتور عبد الرحمن بك عمر فقال: أرجو أن لا تكون لفاجعة بغداد أسباب أعمق مما نشرت الجرائد.

فعجبتُ من هذا الطبيب، لأني لم أر شواهد هذا العقل الحصيف منذ أيام. وقد أقنعته بأن الحادثة فردية، وهي بالتأكيد جناية من جنايات القيظ في بغداد.

***

زرت سعادة العشماوي بك في مكتبه بوزارة المعارف فقال: أمن أجل هذه التصرفات السيئة أرسلناكم إلى العراق.

فأجبتُ: حاسب الأقدار إذا كنت تملك!

ثم استطرد فقال: يعزُّ عليّ أن تسوء سمعة العراق في هذه البلاد بعد الذي شهدته بعيني من لطف أهل العراق.

ثم زرت معالي الدكتور هيكل باشا فسألني عن أسباب الفاجعة فقلت: إنها ترجع إلى تصرفات لم يصحبها التوفيق، ولم أشأ أن أُطيل، فقد كان في مكتبه ناس، وخشيت أن يُنقل ما بيننا من أحاديث.

أرسلتُ اليوم خطابا إلى سعادة الدكتور الجمالي أعتذر فيه عن فراق بغداد قبل أن أراه، وقد أكدت له أني آسف على أن لم أستطع إجابته إلى دعوتي لمواجهته قبل الرحيل.

***

أشارت الجرائد إلى عودتي من العراق إشارة خفيفة وتفردت جريدة المصري بنشر كلمة لطيفة تشهد بأن كاتبها صديق نبيل. وسأزور جريدة المصري زيارة تحية، ثم أرجو أصدقائي هناك أن يراعوا المودة في كل ما يكتبون عن العراق.

هنا القاهرة!

هنا القاهرة بلد العقل.

هنا القاهرة بلد الجنون.

***

أصبحت همومي لا تطاق.

كنتُ نذرتُ وأنا في بغداد أن لا أترك في القاهرة مكانا بلا تحية يوم أعود.

وكنتُ أتوهم أن القاهرة ستمدّ ذراعيها لعناقي يوم أرجع.

ثم أخلفت الأيامُ ظنوني كل الإخلاف.

أمسيتُ أنفر من القاهرة لأني لا ألقى إنسانا إلا وقفتُ أمامه موقف المسئول عن تعليل فاجعة بغداد.

وقد عرفتُ من تجاريب هذه الأيام القليلة أني لا أُريح أهل مصر من همومهم إلا في أحد أمرين:

الأول: أن أصرح بأن محمود عزمي وحسن سيف كانا يعيشان في بغداد عيش السفهاء، والثاني أن أعترف بأن أهل بغداد وُحُوش، ثم أضم صوتي إلى أصوات من يهجمون على العراق.

وهما أمران أحلاهما مُرّ فأنا لا أعرف أن محمود عزمي وحسن سيف وقعا في أغلاط غير التي دونتها من قبلُ في هذه المذكرات، وهي أغلاط لا تستوجب القتل.

وأنا لا أقول بأن أهل العراق وحوش، ولو كانوا كذلك لما أمكن أن يعيش في بلادهم مئات من أهل مصر وسُوريَّة وفلسطين ولُبنان.

ولكن هذا العقل الذي اعتصمتُ به لا ينفع في أوقات الفتن، ولا يطمئنّ إليه إلا مَن صيغت أعصابهم من حديد.

ولتكييف هذه المعضلة أسوق الحادثة الآتية:

نشرت جريدة الدستور مقالا فظيعا جدا حول فاجعة بغداد بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة. وقد فكرتُ في الرد على ذلك المقال، ثم خشيتُ أن يكون في الرد ما يغري الكاتب بإنشاء مقال جديد فينفتح البابُ للجدل واللجاج، وصحّ عندي أن الرأي الأصوب هو مقابلة الأستاذ محمد خالد صاحب جريدة الدستور وهو صديق قديم فيه مخايل كثيرة من النجابة والعقل، وبعد أن قضيت لحظات في مراجعة الأستاذ محمد خالد تبسم وقال:

أترى أن يُطلق الرصاص في بغداد على أستاذين مصريين، ثم يكون من واجبنا أن نعتذر عن أهل العراق؟

وفي هذه الكلمة الخلدونية جميع المعاني:

فالمصريون يتمثلون بفطرتهم أن فاجعة بغداد تقبض صدر الحليم، وتقهر أعقل الناس على اصطناع الجنون، وهل من الكثير أن يسمع من أطلقوا الرصاص كلمة أو كلمتين من مُوجع التأنيب؟

هذا حق.

ولكن لا بد من إفهام أهل مصر أن أهل العراق لم يفتهم أن يُسمعوا أنفسهم تلك الكلمات اللواذع، ولم يفت جرائدهم أن تكتب بالخط العريض أن تلك الفاجعة أساءت إلى سمعة العراق وعرضته لأن يتهم بالوحشية.

وأنا رأيت بعيني كيف توجع العراقيون لمصير المرحوم حسن سيف.

فكيف أسكتُ عن تحامل الجرائد المصرية على أهل العراق؟

كيف أسكت وأنا أعرف أن الحادثة فردية ولا ينبغي أن تُفسد العلاقات بين أمتين شقيقتين؟

كيف أسكت وقد رأيت بعيني دموعًا تسيل في بغداد جزعًا على صديقي سيف؟

***

ولكن كيف عرضتُ سمعتي للأراجيف وأنا أدافع عن أهل العراق؟

لذلك أسباب يجب تدوينها في هذه المذكرات:

رأيت كثيرا من الذين عاشوا في العراق يطربون لما أكتب في الدفاع عن العراق، فسألتهم: ولماذا لا تتقدمون لمعاونتي؟ فقالوا: نحن معك بقلوبنا!

فقلت: وذلك أضعف الإيمان!

وحدثني قلبي بأن الشرق لم ينحطّ من قلة القلوب، وإنما انحط من قلة العزائم، وتذكرتُ أن الأمم العظيمة هي التي يوجد فيها رجال شجعان يقولون كلمة الحق حين تخرس ألسنة الجبناء.

وما الذي يمنع من أن أزكي عن شجاعتي بمقاومة من تحدثهم أنفسهم بمحاربة العراق؟ ما الذي يمنع من أن أكتب صفحة جديدة في لوح المجد المصري بإعلان كلمة الحق؟ ما الذي يمنع؟

آه، ثم آه !!

يمنع من ذلك أن ناسا حميتُ أعراضهم بقلمي ولساني يقدمون الشواهد الكواذب لتغذية الأقلام التي تنقض ما أكتب في الدفاع عن العراق.

ومن هم أولئك الناس؟

هم أصغر وأحقر من أن أشير إلى أسمائهم في هذه المذكرات.

وستنجلي الغُمَّةُ بإذن الله ويسود الصفاء بين مصر والعراق، ثم لا يبقى لأولئك الناس غير الخزي والهوان!

أهؤلاء مصريون؟

لو كانوا مصريين لتذكروا أن لهم إخوانا في العراق يؤذيهم أن تسوء الصلات بين مصر والعراق.

لو كانوا مصريين لتذكروا أن في العراق عشرات من المهندسين والأطباء والمدرسين يؤذيهم أن تنقطع العلائق بين مصر والعراق.

ولكن أين المصري الذي يسند أخاه؟

نحن نعيش في عصر غادر لا يعرف الوفاء.

***

لقيني اليوم جماعة من الأصدقاء وهم يصرخون: كيف تقول: إن حادثة بغداد فردية وقد شاع أن الشاب الذي أطلق الرصاص كان له أعوان؟

فقلت: والحادثة مع ذلك فردية.

فقالوا: كيف تكون فردية وقد اشترك فيها جماعة؟

فقلت: الحادثة فردية لأنها موجهةٌ إلى فرد.

فقالوا: ما معنى ذلك؟

فقلت: معناه أنها موجهةٌ إلى رجل مصري، ولم توجه إلى الأمة المصرية.

فقالوا: كل فرد يمثل أمته.

فقلت: لا يمثل الفرد أمته حين يخطئ، وإنما يمثلها حين يصيب.

فقالوا: وهل أخطأ محمود عزمي؟

فقلت: إنه إنسان يخطئ ويصيب!

***

تلقيت خطابا بإمضاء مجهول يتهمني كاتبه بأخذ رشوة من حكومة العراق لتهوين فاجعة بغداد، فعرفت أن هناك مؤامرة سرية يراد بها إفساد ما بين مصر والعراق.

ولكن من الذي كتب ذلك الخطاب؟

لستُ من الغفلة بحيث أجهل أسرار تلك الألاعيب.

وهل يمكن أن يكتب هذا الإنذار السخيف غير مخلوق وسوس إليه شخص حرمه الله نعمة الصدق؟

وهل يضرني أن أتهم بالرشوة؟

إن التهم لا تفل من عزيمة الرجل إلا حين تكون صحيحة، وقد عشتُ دهري رجلا شريفا لا آكل لُقمة بغير عرق الجبين.

فلأمض في طريقي غير هياب، وللسفهاء أن يقتلوا أنفسهم من الغيظ.

وستنجلي الغمة بإذن الله ويبوءون بالخسران.

أمثلي يتهم بالرشوة؟

غضبة الله على الدساسين المناكيد!

***

لقد حمى وطيس المعركة بيني وبين خصوم العراق.

ولا بد مما ليس منه بد.

لا بد من سد جميع الطرق في وجوه الآثمين.

وتلك الطرق هي الجرائد.

أما جريدة الأهرام فقد أغلقت الباب بعد المحادثة التي كانت بيني وبين الأستاذ الجُميل. وأما جريدة المقطم فقد ضمنتُ سكوتها عن الحادثة بعد أن قابلت الرجل الحصيف خليل ثابت.

وأما جريدة الدستور فهي جريدة صديقي محمد خالد ومن حقي أن أقترح عليها ما أشاء. وأما جريدة البلاغ فقد وعد صاحبها الأستاذ عبد القادر حمزة أن لا تتعرض لتلك الفاجعة بغير ما يهوّن أثرها في القلوب، وكان ذلك بمحضر زميلين من أصدقاء العراق هما المازني والعقاد.

وأما السياسة الأسبوعية فزمامها اليوم بيد صديق أريب هو الأستاذ حافظ محمود، وقد وعد بأن يكتب ما يرضيني ويرضي الحق.

وأما جريدة المصري فلي فيها صديقان عزيزان هما محمد علي رفاعي ومحمد شافعي البنا، ولي أن أردهما إلى جادة الحق حين أجد ما يوجب ذلك.

ومجلة الاثنين لي فيها صديق هو الأستاذ حسين شفيق المصري، وهو رجل لا يهمه شيء، ولكني استطعت أن أقنعه بأن التحامل على العراق لا يليق.

ومجلة الدنيا لي فيها أخ هو الأستاذ طاهر الطناحي وهو أعقل من أن يحتاج إلى إرشاد. ومجلة المصور فيها الأستاذ فكري أباظة ومركزه الأدبي والسياسي يصده عن البغي والعدوان.

ومجلة الصباح هي مجلتي، ولي الحق المطلق في تصحيح ما يقع فيها من أغلاط. فما الذي بقي من الأقلام المصرية؟

لقد تلقيت اليوم خطابا من السيد حقي سليمان الخالدي يخبرني فيه بأن الحكومة العراقية صادرت مجلة اللطائف لأنها نشرت كلمة غير لائقة عن حادثة بغداد.

وقد سألت عن كاتب تلك الكلمة فعرفت أن كاتبها هو الأستاذ حسن مظهر، وهو أديب لم أعرفه من قبل، ولكن يظهر مما قرأتُ من آثاره الأدبية أنه شاب على جانب من الأدب والذوق، وسأتصل به، ولو تليفونيا، بعد يوم أو يومين.

***

ومجلة آخر ساعة ...

وما الذي أخافه من مجلة آخر ساعة وصاحبها هو صديقي محمد التابعي، ومحررها هو تلميذي الوفيّ الأمين مصطفى أمين؟

اليوم عرفتُ أن المرء قد يخاف من حيث يأمن.

ولذلك تفصيل مزعج:

عرف الأستاذ أحمد الصاوي أني أغلقتُ في وجهه جريدة الأهرام فمضى يناوشني ويناوش العراق في مجلة آخر ساعة، وساعده صديقٌ عزيز هو الدكتور سعيد عبده.

فماذا أصنع؟

لا يزال الصاوي هو الصديق القديم الذي عرفتُه في القاهرة وباريس.

لا يزال الصاوي هو الأخ المخلص الذي تعزّ عليّ إهانته، وإن ظلم وخان.

***

وأما الدكتور سعيد عبده فهو صديق حميم لم تغير وده الأيام الطوال، فكيف أستبيحُ الهجوم عليه؟

كيف أستجيز العدوان على هذين الصديقين والدنيا أحقر من أن يعتدي فيها صديق على صديق؟

وما الذي أستفيد أو يستفيد العراق من العدوان على هذين الصديقين؟

لم يبق إلا بابٌ واحدٌ هو إفحامهما بترفق في مجلة آخر ساعة.

وكذلك مضيتُ فأقصيتهما عن الميدان إلى غير مرجع بمقالين نفيسين يرق لهما أقسى القلوب.

وكفى الله المؤمنين القتال.

***

وأعود إلى تصفية الحساب فأقول:

أراد الأستاذ الصاوي أن يثبت أن المصريين لم يلقوا في العراق غير الضيم والهوان. وأضاف إلى ذلك أني لم أكن سعيدا في بغداد، وهو يعرف أني لم أسعد في حياتي كما سعدت في بغداد. وهو كذلك يعرف أن شعراء العراق خلدوا اسمي في كثير من القصائد الجياد [1].

وأراد الدكتور سعيد عبده أن يُفهم المصريين أنني أدافع عن العراق لأحفظ مكاني بدار المعلمين العالية في بغداد.

فهل يعرف هذا الصديق أنني اعتذرت اعتذارًا قاطعًا عن الرجوع إلى بغداد؟

هل يعرف هذا الصديق أن الدكتور زكي مبارك يستطيع أن يشوي لحم الأسود إن قضت عليه المقادير أن يجوع؟

وما الذي يُحوجني إلى مصانعة أهل العراق لأرجع إلى عملي في بغداد؟

أنا بفضل الله من الأغنياء ومن كبار المُلاك في بلدي، فما الذي يوجب أن أتزلف لأهل العراق لأحفظ مكاني في بغداد؟

ما الذي يعوزني لأعيش ولي دارٌ في مصر الجديدة وداران في سنتريس؟

ما الذي يعوزني لأعيش ولو فرغتُ لتدبير أملاكي لعشتُ في ظلها عيش السعداء؟

---

(١) سأنشر بعض تلك القصائد في ختام هذه المذكرات، إن شاء الله.

وكيف أخاف العيش وأنا أعرف أني سأموت قبل الأوان بسبب الإسراف في الطعام والشراب؟

من العيب على الدكتور سعيد عبده أن يتهمني بالمصانعة من أجل الرزق، وهو يعرف أني أبذل من الصدقات ما لا يبذل كبار الأغنياء.

ومن العيب على الأستاذ الصاوي أن يسمع فيّ أقوال السفهاء وهو يعرف أني أفضل صديق صافحته يمناهُ.

وسيثبت بإذن الله أن الدكتور زكي مبارك أشرفُ رجل أنجبه وادي النيل. فانتظروا قليلا حتى تسمعوا صوت التاريخ.

***

كنت أظن أن قومي سيذكرون أني رفعت صوت مصر في العراق.

كنت أظن أن قومي سيذكرون أني قضيت العام كله في بغداد وأنا أصحح أغلاط الكتاب المصريين الذين يجهلون قواعد الذوق وهم يتحدثون عن علاقة مصر بالأمم العربية.

كنتُ أظن أن مكانتي ستُحفظ في مصر وقد غنمتُ لها قلوبًا عزيزةً في الشرق.

كنتُ وكنت، فمن أنا في وطني وفي دنياي؟

أكل ما يرجو فلان وفلان أن لا أحفظ مكاني في بغداد؟

وهو كذلك.

فلأعلن في مجلة آخر ساعة وفي سائر الجرائد والمجلات وفي جميع الأندية أنني اعتذرت اعتذارا قاطعا عن الرجوع إلى العراق لأقيم الدليل على أن المصريّ قادرٌ على أن يكون من أهل المعاني حين يشاء.

أهذا كل ما يرضيكم، أيها الإخوان الأعزاء؟

لن أرجع إلى بغداد في العام المقبل، وإن كان في هذا التمنع خروج على رغبة الأستاذ الجليل مدير التربية والتدريس بوزارة المعارف العراقية، فقد كتب إليّ يقول: (وزارة المعارف) بغداد ٣٨/٧/١٢.

تحيات عاطرة، وأشواق أخوية «وبعد» تناولت رسالتك المختصرة التي تحمل على اختصارها سعة نفسك وسمو عواطفك.

أجل، قد أكدت على الدكتور عقراوي أن يجمعني والأخ الدكتور زكي مبارك قبل سفره، ولكن شاءت الأقدار أن تنتهي سنة مملوءة بالصفو والسمر بحادث ترك كل حزن وكدر.

أما الداعي الأصلي لرغبتي في الاجتماع، فهو أن أستطلع رأي الأخ الدكتور زكي في العودة إلى العراق في السنة القادمة، إن الكتاب الموجه إلى الدكتور عقراوي والذي تعتذر فيه عن العودة في السنة القادمة لا يحوي أسبابا كافية تدعو لعدم العودة. أما نحن من جهتنا فقد بدأنا نتذوق حلاوة الأخ وأدبه، وليس من الإنصاف تركنا بهذا الشكل، ولذلك فأرجو رجاء أخويا أن تنظر في الأمر نظرة جدية ثانية وتخبرني إن كان في إمكانك العودة في السنة القادمة، وأرجو أن يكون ذلك ممكنا. وأرجو أن تعلم أن معالي وزير المغارف يشاركني في الترحيب بك إن قررت العودة في السنة القادمة. في انتظار قرارك الأخير الإخوان جميعا يلهجون بذكرك. تحيات عائلتي وأطفالي لكم وللعائلة والأطفال. أهدي التحيات

للدكتور منصور فهمي وللأستاذ العشماوي (وإن لم أحظ بشرف التعرف عليه بعد) ولكل من يذكرني من الإخوان في مصر.

ولك من أخيك المخلص أسمى التحيات وأطيب الشوق ... محمد فاضل الجمالي

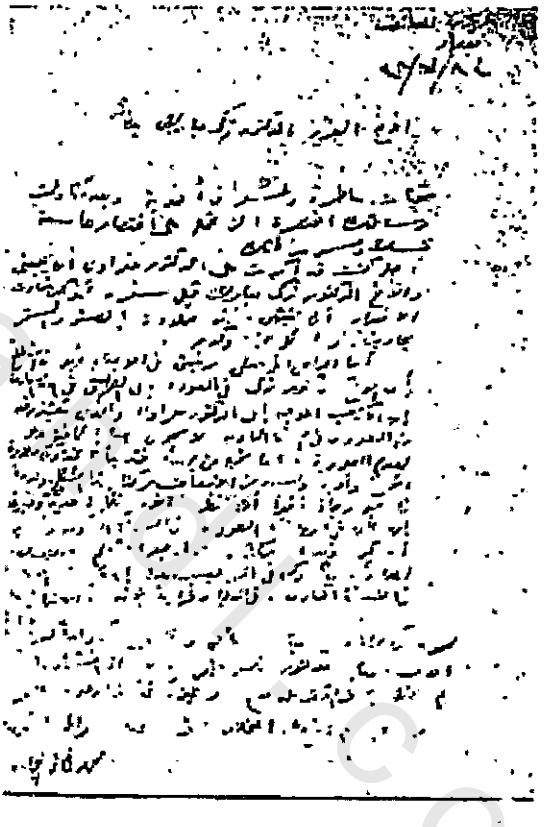

ما كنت أحب أن لا تتحقق رغبة الأستاذ مدير التربية والتدريس الذي نصّ في خطابه الكريم على أن معالي وزير المعارف العراقية يشاركه في الترحيب بي، إن قررتُ العودة في السنة المقبلة، والذي رجاني رجاءً أخويا أن أنظر في الأمر نظرة جدية ثانية، والذي شرفني كل التشريف حين قال: «لقد بدأنا نتذوق حلاوة الأخ وأدبه وليس من الإنصاف تركنا بهذا الشكل».

أنا بين نارين: نار التخوُّف من أراجيف من يشيعون أني لم أتحمس في الدفاع عن العراق إلا لأحفظ مكاني بدار المعلمين العالمية في بغداد.

ونار الخوف على مصير كتاب التصوف الإسلامي الذي يتوقف على طبعه تسوية حالتي بوزارة المعارف المصرية.

وهل يصدق أحد أن وزارة المعارف المصرية لا تعطيني غير مرتبٍ مؤقتٍ إلى أن يُطبع ذلك الكتاب؟

هل يصدق أحدٌ أني لا أستطيع النص على قيمة ذلك المرتب المؤقت لئلا يشمت أعدائي، ولئلا يعرف ناسٌ أن رجال الأدب في مصر قد يعيشون عيش الفاقة والإملاق؟

لمصر أن تدعي الزعامة الأدبية كيف تشاء، ما دامت «حرفة الأدب» تلازم في ظلها أحرار الأدباء!!

***

الخير كل الخير في أن أحرم نفسي من رؤية العراق في العام المقبل.

الخير كل الخير في أن أُسارع إلى طبع كتاب التصوف الإسلامي لأسوي حالتي بوزارة المعارف المصرية.

ولكن كيف أطبع ذلك الكتاب؟

وأين؟

قضيت بقية حُزيران، ثم أتبعته بشهر تموز، في دفع الأذى عن العراق، وسرّني أن أُفلح في تهدئة النفوس التي امتعضت من فاجعة بغداد، وقد

أصبح مفهوما عند أكثر المصريين أن الحادثة فردية وأنه لا يجوز أن تفسد ما بين مصر والعراق من صلات.

ولكن هذا لا يكفي.

لا يكفي أن يقع الصلح بيني وبين من خاصمته في سبيل العراق، وهو صُلح قد تكدره الأهواء بعد حين.

لا يكفي أن تصفح مصر عن حادثة وقعت لأحد أبنائها في العراق.

بل يجب أن نحاول رياضة أهل مصر على حب أهل العراق.

وهذا الحب المنشود ستكون له ثمرات: لأن العراق هو أعظم شعب عربي بعد مصر، فإذا تحاب هذان الشعبان القويان كان ذلك نواة صالحة لشجرة الوحدة العربية.

وفاجعة بغداد أطلعتني على حقائق لم أتنبه إليها من قبل: فقد رأيت العراقيين والمصريين يتشابهون في أشياء كثيرة منها الأنفة وسرعة الانفعال.

فماذا أصنع لأروض أهل مصر على حب أهل العراق؟

مضيت فاقترحت على الأستاذ محمد سعيد لطفي أن يمهد السبيل لسلسلة محاضرات ألقيها في الإذاعة اللاسلكية عن العراق، وقلت له بعبارة صريحة: إنني أريد أن أحدث أهل مصر عن محامد العراق، لأن من الظلم أن يشيع بالحق أو بالباطل أن أهل العراق متوحشون، وهم قومٌ كرام وثقوا بمصر وائتمنوها على توجيه الحركة العلمية في معاهدهم العالية.

وقد شرعتُ في إلقاء تلك المحاضرات وسيكون لها بإذن الله قبولٌ حسن عند الجمهور، وستصل إلى ناس لم يقرءوا ما نشرتُ عن العراق في الجرائد والمجلات.

ورأيت أن أخطو خطوة جديدة فقررت أن أطبع كتاب «وحي بغداد» وهو كتاب يؤدي مهمتين عظيمتين في وقت واحد: فهو يقدم إلى أهل العراق صورا شائقة عن مصر، ويقدم إلى أهل مصر صورا شائقة عن العراق. والتعارف أساس الحب.

وكذلك أصبحتُ في ليلي وفي نهاري مشغولا بشواغل نبيلة ترفع نفسي درجات عاليات.

***

لم أجد صعوبة في طبع كتاب «وحي بغداد» فقد اشتركت فيه المكتبة التجارية بالقاهرة والمكتبة العصرية في بغداد.

ولكن الصعوبة في طبع كتاب التصوف الإسلامي لأن حجمه مزعجٌ مخيف.

ومن الذي يصدق أني لم أجد ناشرا لكتاب التصوف الإسلامي بين أهل القاهرة مع أني وجدت ناشرا لكتاب النثر الفني بين أهل باريس؟

ولكن لا بد من طبع كتاب التصوف الإسلامي لأسوي حالتي بوزارة المعارف، وهو لن يطبع إلا إذا خاطرتُ في سبيله بأثمن ما ادخرتُ من الأموال.

وأين أطبع ذلك الكتاب العظيم الذي توّج هامتي بتاج المجد؟

أطبعه في مطبعة دار الكتب المصرية التي طبعت فيها كتاب النثر الفني.

***

قدمتُ كتاب التصوف إلى مطبعة دار الكتب وأنا أتوهم أني سأنجز طبعه في شهرين، ولكن مدير دار الكتب وهو سعادة الدكتور منصور فهمي أعلمني أن الإذن بطبعه قد يحتاج إلى أسابيع طوال، لأن اللجنة المختصة بمراجعة الكتب لا تجتمع إلا في أحايين قليلة بسبب عطلة الصيف.

فقلت: هذا كتابٌ أقرته الجامعة المصرية، وكنت أنت من أعضاء لجنة الامتحان، فكيف يحتاج إلى من ينظر فيه من جديد؟

فقال: لا بد من مراعاة الشكليات.

وقد خرجت من مكتبه محزونا، لأني اطلعتُ على مرض جديد من أمراض الشرق: هو مراعاة الشكليات.

وحياتي ملئت بالأكدار: لأني لم أكن أُراعي الشكليات في بلاد الشكليات!!

***

ثم نظرت فرأيتني أعيش عيش العزلة والانفراد، وتذكرتُ ما عانيتُ في الأسابيع الماضية من الشقاء في الوصل بين مصر والعراق، وهو جهادٌ لم يجد من يسيغه من أهل هذه البلاد، ولم أجز عليه خير الجزاء، مع أني كنت في ذلك الجهاد أصدق الرجال.

نظرت فرأيتني محروما من النعيم بأندية القاهرة، ورأيت أكثر أصدقائي صدفوا عني، فقررت الاعتكاف في بيتي، ونشرت الكلمة الآتية في مجلة الرسالة الغراء:

هذه داري وهذا وطني

ولكن أين أحبابي؟!

هذه داري، الدار التي أقمتها على أطراف الصحراء بمصر الجديدة لأفتح أمام قلبي آفاق المجهول من عوالم المعاني.

وهذا وطني، الوطن الذي عانيتُ من أجله ما عانيتُ، ولم أخنه في سر ولا جهر، ولم ير مني غير الصدق والوفاء.

هذه داري وهذا وطني، ولكن أين أحبابي؟

من كان يظن أني أقضي الأيام والأسابيع فلا أجد من يسأل عني بعد غياب الشهور الطوال؟ من كان يظن أني لا أجد أنيسا غير بريد بغداد على بُعد ما بيني وبين بغداد؟

من كان يظن أني أحبس نفسي في داري ليالي وأياما فلا يُسهد لعزلتي جفن، ولا يحزن قلب، ولا يرتاع وجدان؟

من كان يظن أني لم أتلق من الإسكندرية غير خطاب واحد، ولم أتلق من دمياط غير خطاب واحد، ولم أتلق من سنتريس غير خطابين اثنين، وسكت مَنْ أهواهم في المنصورة وأسيوط؟!

من كان يظن أني لم أعبر شارع فؤاد غير مرة واحدة منذ رجعت من بغداد؟

وما فائدتي من عُبُور ذلك الشارع المتموج؟

كان لي في القاهرة هوى معبود فتبدد وضاع، كانت ليلاي في الزمالك، فأين ليلاي وأين الزمالك؟

أنا أطفئ المصباح بعد نصف الليل وأفتح النوافذ لأرى كيف يهيم نور القمر فوق رمال الصحراء، فماذا تصنع ليلاي بالزمالك أو ليلاي بالعراق؟

آه ثم آه من حيرة القلب في غفوات الليل!

***

أيتها الصحراء.

إن حالك مثل حالي مواتٌ في موات.

وقد تمرح فوق ثراك الميت هوام وحشرات.

وفوق ثرى قلبي الميت تمرح هوام وحشرات هي السخرية من الناس، واليأس من صلاح القلوب، وجمال الوجود.

وقد ترق حواشيك بالندى أو الغيث فتنبت فوق ثراك الأعشاب!

أما قلبي فقد أمحل إلى الأبد ولن ينبت فيه شيء.

وأشقى الناس من يعيش بقلبٍ أجدب من الصحراء.

***

أيها الليل!

هل رأيت في دنياك من ينافسك في ظلامك غير قلبي؟

هل عرفت منذ أجيال وأجيال شقاء مثل شقائي؟

***

أيها الليل!

خذ السواد من قلبي، إن أعوزك السواد.

خذ الظلام من حظي، إن أعوزك الظلام.

خذ من قلبي ومن حظي ذخيرتك للأحقاب المقبلات.

خذ مني ما تشاء، أيها الليل، فلن تجد مشتهاك عند إنسانٍ سواي.

خذ مني ما تشاء بلا مَنٍّ عليك: فما أخذتُ السواد إلا منك، ولا ورثتُ الظلام إلا عنك.

ومثلي يحفظ الجميل.

***

أيها الليل!

لا تجزع من العُزلة، فأنا هنالك أسامرك وأُناجيك.

لا تفزع من الوحدة ففي قلبي ظلمات تساير ما تحمل من ظلمات.

عندي آلامي، وعندك آلامك. والجريح يأنس بالجريح، يا ليل!

أنا أعرف من أنا في دنياي، فمن أنت في دنياك، يا ليل؟

obeikandl.com

أنت جزءٌ من الزمان هجرته الشمس فأظلمت دنياه.

وأنا جزء من الوجود هجرته الشمس فأظلمت دنياه.

إن شمسي تغرب في الزمالك أو في بغداد، فأين تغرب شمسك؟

إن شمسك تغرب ثم تعجز عن الصبر على فراقك فترجع إليك.

وشمسي تغرب فلا ترجع.

فليت حظي كان مثل حظك، يا ليل!

والمقادير تترفق بك فتسوق القمر والنجوم لإيناسك.

وأنا أعاني الظلام المطلق حين تغيب الشمس التي تعرف.

فليت حظي كان مثل حظك، يا ليل!

والناس يخافون بأسك فيتقربون إليك بالقناديل والمصابيح.

وأنا مأمون الجانب فلا يتقرب أحد إليّ بشيء.

فليت حظي كان مثل حظك، يا ليل!

من اسمك يا ليل جاء اسم ليلى، ففيها طُغيانك، وفيها ظلامك، فلا عفا الحب عنها ولا عفا الله عنك!

***

هذه داري، وهذا وطني، ولكن أين أحبابي؟

إن قلبي يستحق التأديب، فليتلق من الضيم ما هو له أهل:

ألم يتلق رسائل الشوق من بغداد فسكت عنها سكوت الغادرين؟

ألم يتلق رسائل الشوق من باريس فسكت عنها سكوت الجاحدين.

ألم تنتقل إليه الغادة النورمندية فاستعفى من صحبتها بالقاهرة محافظة على سمعته بين الناس؟

إن قلبي يستحق التأديب، فليتلق من الضيم ما هو له أهل.

أيها الليل!

قد اقترب صباحك، فمتى يقترب صباحي؟

لك خلاص من ظلماتك، فأين الخلاص من ظلماتي؟

ستمضي لشأنك وتتركني، يا ليل!

إن الظلمات تقتل شبابي، وتحيي شبابك.

إن الظلمات تصيرك أقوى وأعنف، وتصيرني أرق وألطف، والرقة واللطف من بواكير الفناء.

أيها الليل!

لقد عرفتُ قسوتك في بلادٍ كثيرة من الشرق والغرب، وما كنت أعرف أنك أقسى ما تكون في داري وفي وطني.

أما بعد فأنا أعترف بأن قلبي يستحق التأديب.

obeikandl.com

كنت أصم أذني عمن يسألون عني في باريس وفي بغداد: لأفرغ لما سموه الواجب، فليتني أجبت الدعوة في باريس وفي بغداد لآخذ ذخيرتي من الحب والعطف!

ليتني صنعت وصنعت، ولكن هيهات، فقد فات ما فات!

أيها الليل في مصر الجديدة!

أنا على كل حال رفيقك وأخوك.

وستمضي الأعوام والدهور، ولا تعرف أصدق مني.

***

سيذكرني الناسونَ يومَ تَشُوكُهم شمائل من بعض الخلائق سُودُ
سيذكرني الناسونَ حين تروعُهمْ صنائعُ من ذكرى هواي شُهودُ
فوالله ما أسلمتُ عهدي لغـدرةٍ ولا شابَ نفسي في الغرام جُحودُ
ولا شهد الناسونَ مني جنـايةً على الحب إلا أن يقال شهيدُ

***

تداويتُ من ليلى بليلى من الهوى كما يتداوى شاربُ الخمر بالخمرِ

وكذلك أداوي حبا بحب، وغراما بغرام: كما كان يصنع زميلي قيس في الأيام الخوالي. إن ليلاي بالعراق مغفورة الذنوب: لأنها أوحت إلى قلمي فنونًا من الغرائب، وقد رقمت اسمي بأحرفٍ من نور فوق جبين الزمان.

فما حجة ليلاي بالزمالك في تجنيها الأثيم؟

ما حجةُ هذه اللئيمة في سفك دمي، وقد أذعتُ محاسنها عند صبايا دِجلة والفُرات؟

كنت أتشهّى أن أرى النور المتوهج في جبينها المُشرق.

كنت أتشهّى أن ألهو بها في ليلة قمراء بطريق السويس.

كنت أتشهى أن أقضي معها سهرة في زورقٍ يترنح فوق أمواج النيل.

كنت أتشهى أن أخاصرها في بساتين الجيزة الفيحاء.

كنت أتشهى أن نهيم على وجوهنا في حيّ القصر العالي الذي يسميه الجهلاء (جاردن سيتي).

كنت أتشهى أن أرى معها البيت الذي كنا اصطفيناه بحدائق القبة.

كنت أتشهى أن أهصر فوديها بحي الزيتون.

كنت أتشهى أن نغرق معًا في النيل عند القناطر الخيرية.

كنت أتشهى أن أرى وجه الله في وجهها الجميل!

ولكن من الذي يدرك كل ما يتمناه؟

أنا أعيش بروح سماوية وهي تعيش بروح أرضية، مع أنها والله حُورية نزلت إلينا من الفردوس.

إن ليلاي بالزمالك لا تعقل، لأنها حسناء، والحسنُ يغري بالجنون.

سأحاربها بقلمي، كما حاربت إنجلترا بقلمي.

وأنا رجلٌ يحارب الظلم في جميع الأشكال.

وكذلك أنشر الرسائل لأفضح ليلى المريضة بالزمالك ولأجعلها عبرةً لغادات المعادي وحلوان.

«وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

الرسالة الأولى

سيدتي.

أشكر لكِ الخطابَ الرقيق الذي نشرته في مجلة الصباح، وأتمنى أن أقرأ لك مثلهُ من حين إلى حين، فأمثال هذه الرسائل هي آخر ما أظفر به من نعيم الحب في الزمالك.

وما كنت أظن أن الدنيا ستصل إلى هذا الحد من الإقفار والإيحاش، ما كنت أظن أن تفسد الدنيا حتى أحبس نفسي عن رؤية الزمالك أربعة أسابيع بعد أن طال اغترابي في العراق، واشتقتُ إليك وإلى الزمالك أشد اشتياق.

كان الوهم يحدثني أن الأرض سترقُص تحت قدميكِ حين تسمعين بقدومي، كنت أتوهم أني سأموت مقتولا بأريج الأزهار في قصرك المنيف، كنت أحسبُ أن حَسابي سيطول على ما قدمتُ وما أخرت، وأن العتاب سيقتل الليالي حين نلتقي .. فما الذي وقع من كل ما توهمتُ وحسبتُ وظننتُ؟

لم يقع شيء، ولم تطأ قدماي أرض الزمالك، لأني عرفت بوحي القلب أنك انتقلت من رياض الملائكة إلى حظائر الشياطين. وأنا الجاني على نفسي حين تركت الثمرة الشهية لتنُوشها البُوم والغِربان!

ليتكِ تعرفين يا سيدتي ما صنع الدهر بقلبي!

ليتكِ تعرفينَ أني لم أعُد ضاحكا بسّاما على نحو ما كنت في الليالي الخوالي!

كان هواكِ يا غادرة يُنير الدنيا أمام روحي، وكنتُ كلما تشكيتُ بلائي بليلى المريضة في العراق منيتُ النفس بالعيش السعيد حين ألقى ليلى المريضة في الزمالك. ولكني عرفت فيما قرأت في بعض المجلات أن قصرك فتحت أبوابه فدخلته وجوه مشئومة لا تصلح لمجدٍ ولا حُب، وعرفت أن الأكواب في قصرك العالي لمستها أفواهٌ كان يكثر عليها أن تظفر بالماء القراح!

أترين الدنيا تصلح مرة ثانية فأرى أني حين اتهمتك كنت من الظالمين؟

أيجيء يوم أرى فيه أنك لا تزالين نقية القلب طاهرة الوجدان؟

أكتب هذا وأمام قلبي خيال اليوم الذي دفعنا فيه مرة حساب النور لقصرك العالي، فقد عجبنا حين رأينا حساب الكهرباء يصل إلى عشرة جنيهات فنظرتُ إليك وقلت: ولكن قلبك يا شقية لا يزال ظلاما في ظلام!!

كنا نلهو ونلعب، وكانت الدنيا من حولنا تلهو وتلعب، وكان للقمر رقصات تميد لها راسيات الجبال من الرفق والحنان.

فمن يُعيد تلك الأيام السوالف؟

من يعيدها لأرى بعيني جبينك المُشرق وهو يتوهج ويتألق؟

من يعيدها، يا ليلى، من يعيدها يا روح القلب الذي شرده الزمان!

إن قلبي يموج بالوساوس والأوهام والأضاليل.

فهل يكتب الله أن أراك وعلى وجهك نضرة الصيانة والوفاء؟

هل يكتب الله أن أقف بين يديك لأستغفر من سيئات الظنون؟

الأمر إليك يا ليلى، إن كنت لا تزالين على كرم العهد.

لا تظني أبدا أني سأعبر الزمالك بعد اليوم إلا حين يصح عندي أني كنت في سوء الظن من الخاطئين.

اعرفي يا ليلى وتيقني أني أصبحت أحمل فوق كاهلي هموما لا تحملها الجبال.

اعرفي أنك ملأت الدنيا سوادا في وجه عاشق مخلص كان ملأ الدنيا نورا في وجهك الوضاح.

اعرفي يا ليلى ما تعرفين، وأنكري ما تنكرين، ولكن تذكري أني لم أكن إلا رجلا كريما يحفظ العهود والمواثيق.

وتحدثك الغيرة بأني أحضرت معي ليلى المريضة في العراق.

فما الذي يمنع من أن تفاجئيني بزيارة في غسق الليل لتعرفي ما تضمر داري من ملاح الليليات؟ ليتك تحضرين مرة على غير موعد لتعرفي أن أنيسي في داري هو صورتك الباسمة التي انتهبتها منك انتهابا في ليلة مُقمرة من ليالي الربيع الأسبق!

تعالي مرةً يا غادرة وانظري كيف صارت تلك الصورة وثنا يعبده القلب.

تعالي تريْ صورتك مصحوبة بصورةٍ عزيزة غالية هي صورة أختك العزيزة الغالية، صورة ليلى المريضة في العراق.

تعالي وانظري كيف جمعتُ بين الصورتين لينعم القلب بجحيمين!

تعالي مرة، فما في شريعة الحب أن نعيش في عبادة الصور والأشكال.

تعالي مرة، تعالي، تعالي واستغفري من ذنبك في الصدود لا في العقوق، فما زلت أرجو أن يكون ارتيابي في وفائك المعهود أضلولة من أضاليل الخيال.

تعالي، يا ليلى، تعالي، تعالي نقرأ معا بريد بغداد!

أحبك يا ليلى؛ أحبك وأحب بغداد، وليلاي في العراق.

أحبك بلا أمل ولا رجاء، وإن كنت أتشهى أن أقبل ذلك الوجه مرة ثانية، قبلة أثيمة تنزعج لها شياطين الأرض وملائكة السماء.

أحبك يا ليلى، فتعالي خذيني، خذي الطفل الكبير الذي لم تؤدبه الأيام ولا الليالي، ولم يعرف أن الثقة بعهود الملاح ضرب من الخبال.

تعالي يا عروس الزمالك، تعالي إلى قلبي وروحي وضميري، تعالي إلى الرجل العارم الذي لا يزال على ما تعهدين من العُنف والجموح.

تعالي يا ليلى، تعالي، تعالي نقرأ معا بريد بغداد لتعرفي أن ليلاي هناك تسأل عني، وهي ترتاب في وفائي كما ترتابين، ولكنها تقول فيمن أحب:

«أفوقهم بإخلاصي»

تعالي وانظري هذه الجملة «أفوقهم بإخلاصي» لتعرفي أن الإخلاص له في عالم الحب ميزان.

اسمعي يا ليلى.

سأزور الزمالك بعد أسبوع أو أسبوعين، فإن دار رأسك من حيث لا تحتسبين فاعرفي أن روحا شفافا يزور ذلك الحي الجميل، ولن يكون ذلك الروح غير روحي المشرد الذي أشقاه الغرام بالملاح.

اسمعي، يا ليلى، اسمعي.

ستطوف بالدنيا قلوبٌ وأرواح، ويبقى في عالم الخلود قلبي وروحي.

لن يكون لك أثرٌ في الوجود إلا بفضل العاشق الذي تكوين فؤاده بنارك الحامية.

ستفنى محلة الزمالك، ويبقى ما قلت في عروس الزمالك.

اصنعي ما شاء لك الغدر والجحود، ولكن تذكري أن غضب الحب سيحل عليك، وسيذلك الهوى فتسألين عني بعد حين.

أستغفر الحب:

فما أتمنى إلا أن تعيشي بخير وعافية، وأن تظلي ريحانةً مطلولة تبسم للشروق والغروب، وتطالع الدنيا بالنّضرة والنعيم.

أحبك يا ليلى، أحبك يا غادرة، وأحب من أجلك جميع الملاح.

وسلام الحب على الجدائل المعطرة التي كانت ذكراها تؤنس وحشتي في أيام الاغتراب وسبحان من لو شاء لأرضاني عنك وأرضاك عني.

الرسالة الثانية

لم أكن أعرف وليتني ما عرفت!

لم أكن أعرف أني قدام على سعير العذاب حين فكرت في إغناء الأدب العربي بألوان من الصور الشعرية التي تصور عذاب الأرواح والقلوب.

لم أكن أعرف أني سأضع قلبي بيدي فوق جمرات الصبابة ثم أنظر إليه وهو يتنزى ويتوثب عساه يظفر بالخلاص، ولا خلاص!

لم أكن أعرف أني سأجد ليلى في طريقي، ليلى، ليلى التي عذبت روحي وأحرقت قلبي.

لم أكن أعرف أن الهيام بالعيون السود سيسوقني إلى الهيام في غيابات الليالي السود.

لم أكن أعرف أن الأقدار تدّخر لي هذا النصيب الضخم من العناء والشقاء.

وهل يصدق أحد أني صرت لا أعزف غير الحيرة والضلال في يقظتي ومنامي؟

هل يصدق أحد أن الدنيا تحولت أمام عيني إلى منادح من الهول والعذاب؟

أين من يصدق أني أقضي الأيام والليالي في أحزان وكروب؟

وفي سبيل من؟

أحب أن أعرف في سبيل من؟

في سبيل المخلوقة التي تقيم في الزمالك، عليها غضبة الحب!

لم أكن أعرف أن ليلى التي نقلتُ قلبها من مكان إلى مكان، وعلمتها كيف تناجي النجوم، وتصافح الأزاهير وتباغم البلابل، وتسامر الأحلام، وتراود الأماني، لم أكن أعرف أن هذه الإنسانة الظلوم ستسقيني أكواب العلقم بعد أن سقيتها أكواب الشهد.

إنك يا ربي تعلم أني لم أكن سيئ القصد فيما صنعت.

كنت أحب أن أقيم في دنيا الشرف هيكلا يُعبد فيه الجمال.

كنت أحب أن تقوم في عالم الأدب العربي دولة للقلوب والأحاسيس.

كنت أحب أن يشعر شبابنا بأن لغتهم لا تزال غنية وأن فيها كتابا وشعراء يعرفون مواسم القلوب.

فكيف كان جزائي؟

كنت كالطبيب الذي يحمل المشرط ليداوي جرحاه فينقل إليه المِشرط جراثيم الهلاك. ليتني أعرف كيف أصور بلائي بما أسلفت من جميل!

إن اللغات كلها تعجز عن وصف ما أعاني، وما أخطر ما أعاني!

وما خفقتْ أرواح النسيم، ولا برقت لوامع النجوم، ولا هتف هاتف بالوجد في صباح أو مساء، إلا حسبت ذلك لمحات من وميض قلبي.

أمن أجل ليلى أصير إلى ما صرتُ إليه؟

ومن أنت يا ليلى؟ من أنت؟ أتملكين شيئا غير عينين سوداوين، وخدين أسيلين، ومبسم يتلألأ بسحر البريق، وقوام يترنح وما سقوه الصهباء؟

أمن أجل ليلى التي تفضح نفسها حين تمشي وحين تنطق يضيع رشدي وصوابي؟

ماذا عندك من الحسن حتى يسير غرامي بلحظك الساحر سير المثل الشرود؟

ماذا عندك حتى أصير إلى ما صرت إليه من الجنون والفتون؟

أشهد أني كنت أرى النور يتموج فوق جبينك الوهاج في بعض لياليا بالزمالك.

وآه ثم آه من ليالي الزمالك!

ولكن ما هذا الطغيان وما تملكين من شواهد الحسن غير لفتات مسروقة من لفتات الظباء، وغير ساقين ملفوفتين لا توضع إحداهما فوق الأخرى إلا مادت الأرض وترنحت الجبال.

أمن أجل ليلى أصير إلى ما صرتُ إليه؟

ومن أنت يا ليلى؟ من أنت؟

من أنت حتى تحولي دنياي إلى أمواج من الظلمات؟

تذكري ما تملكين من شواهد الحسن التافه السخيف!

هل تملكين غير ذلك الدلال الذي يُزلزل قلبي وعقلي؟

هل تملكين غير ذلك الصوت المتكسر الناعم الرفيق المقتول الذي يذل الأسود؟

هل تملكين غير ذلك الصدر المشرق الذي يُغرق الناسك في بحار الضلال؟

هل تملكين غير تلك الطلعة البهية التي تخجل الأقمار والأزاهير؟

ماذا عندك حتى أصير إلى ما صرت إليه من الجنون والفتون؟

ماذا عندك وماذا تملكين؟

***

أنا الذي خلقتُ بقلمي وخيالي كل ما وصفك به الواصفون من حُسن وإشراق.

أنا الذي جعلتك ريحانة الدنيا وأنس الوجود.

أنا صاحب الفضل، يا ليلى، ولولاي لكنت زهرة مجهولة من أزهار الصحراء.

أنا صاحب الفضل على ليلى المريضة في الزمالك وليلى المريضة في العراق.

ولكن أين جزائي؟

أين جزاء العاشق المهجور الذي صار حظه أشد سوادا من قطع الليل؟

obeikandl.com

كل حظي أن أتلقى خطابا فيه خصلة من الشعر أتذكر بها سواد حظي في غرامي.

كل حظي أن أصبح وأمسي مبلبل الخاطر، مقروح الكبد، مفطور القلب.

***

ولكن لا بأس.

فقد كنت أؤمن بأني أواسي بحبي فتاةً لا تأنس بجمالها غوافل القلوب إلا كما تأنس العيون الرّمد بضوء الشمس.

كنت أشعر أني أخلق هذه الفتاة خلقا جديدا، وكنت أرى من الوطنية أن أشيد بمحاسنها ومفاتنها لتجد مكانها في عالم الصباحة والجمال.

وقد وصلتُ من ذلك إلى ما أردتُ، فهي اليوم أمل الآمل وأمنية المتمني.

أما أنا فقد كان مصيري في هواها مصير من يعبد النار، وعابد النار يؤججها بيديه لتُحرقه حين يداعبها وإن ترفق وتلطف!

وما أنكر أني عرفت بفضل هذه الفتاة ما لم أكن أعرف.

عرفت أن النبات الجميل قد يكون أمرّ من الصاب.

عرفت أن البحر لا يروي الظمآن لأن ماءه ملحٌ أُجاج.

عرفت أن الثقة بعهود المرأة تشبه الثقة بعهود الزمان.

وعرفت ما هو أعظم من كل أولئك:

كنت بالرستمية ذات مساء مع أعضاء «نادي القلم العراقي» ومضينا نستروح بسكون الليل حول نهر ديالة فراعنا أن تنبح الكلاب بنزق وطيش.

قال أحد الزملاء: ما أقبحَ نُباح هؤلاء الكلاب!

فقلت: هذا النباح صورة من صور الجمال!

فقال: وكيف؟

فقلت: لأنه يكمل صورة الليل.

وكذلك تصنع المرأة الغادرة، فهي تكمل صورة الوجود.

آه من زمني ومن دنياي!

***

ورجعت أسأل نفسي: ماذا غنمتُ من حب ليلى التي تقيم في الزمالك؟

لقد ظفرتُ بمغانم كثيرة سأنتفع بها فيما بقي من حياتي.

والظاهر أني لا أخلو من لُؤم، لأني أحب اللئام من الملاح.

وإنما كان الأمر كذلك لأني قضيت أكثر من عشرين سنة في الدراسات الفلسفية، فالمرأة الرقيقة القلب لا تؤنسني إلا قليلا، لأن عقلي أكبر من قلبي، وأنا أشتهي المرأة اللئيمة التي يكون غرامي بها فرصة لدراسة القلوب والنفوس والعقول.

أردت مرة أن أساهم في نفقات البيت فقالت: أنت تريد أن تحتل بيتي.

وتلك نظرية دقيقة قد يغفل عنها السياسيون.

وهجمت عليها ذات مرة فدفعتني بعنف وهي تقول: إن مظهر القوة يذكر الضعفاء بالذلة ويغريهم بالعصيان.

أشهد أن هذه اللئيمة على جانب عظيم من الذكاء، واللؤم بابٌ من الذكاء.

أحبك يا لئيمة حبا لئيما، ولا يفل الحديد إلا الحديد.

***

آه من زمني ومن دنياي!

أنا اليوم في خلاف مع ليلاي.

هي تريد أن تنتصر فتنقلني إلى الزمالك، وأنا أريد أن أنتصر فأنقلها إلى مصر الجديدة وطن الملائكة والشياطين.

إن آدم عليه السلام انتقل في سبيل حواء من الجنة إلى الأرض، فلأنتقل في سبيل ليلى من مصر الجديدة إلى الزمالك.

ويظن الناس أن آدم باء بالخسران حين انتقل من الجنة إلى الأرض في سبيل حواء، وهم والله جاهلون، فلو بقي آدم في الجنة لعاش أغلف القلب، خامد الإحساس.

إن نزول آدم إلى الأرض كان فرصة لمعرفة الشهوات والضغائن والأحقاد. والعلم مع الشقاء أفضل من الجهل مع النعيم.

سأرجع إليك يا ليلاي، سأنتقل من مصر الجديدة إلى الزمالك في سبيل البحث عن سرائر الروح الإنسانية.

وسترضين عني يا شقية لأحترق في كوثر الوصال.

ولكن ما هو الوصال؟

هو أن تكشفي الحجاب عن قلبك الغادر لأرى ما في الوجود من حقائق وأباطيل.

أحبك يا ليلى.

أحبك يا ليلاي.

وأستبيح الشرك، فأحب معك الإنسانة النقية التي أمتعتني بخطابين كريمين ولم تظفر بجواب.

لا تغاري من تلك الإنسانة فبيني وبينها أهوال، ولن تراني إلا في عالم الخيال.

أيتها الإنسانة التي تخاطبني فلا أجيب!

أنت كل شيء في دنياي، ولو كرهت ليلى المريضة في الزمالك.

وسأوقد نيران الغيرة في صدور من هنا ومن هناك إلى أن يقضي الحب بما هو قاض، وأنا راض بحكمه وإن كان أظلم الحاكمين.

أكتب هذا وقد طلع الصبح، ولا تزال ظلمات الهجران تسيطر على قلبي.

الرسالة الثالثة

صديقي ...

سألتني أن أكتب كلمة عن ليلى المريضة في الزمالك فأثرت في صدري لوعة محرقة كنت أرجو أن تصير بفضل الكتمان والتناسي إلى الخمود.

وماذا يهمني من أمر تلك الإنسانة الظلوم؟

إن الدنيا كلها سخف في سخف، والحب كله بلاءٌ في بلاء، فلتمض تلك الذكريات إلى جحيم النسيان والجحود.

وقد تعلمت في حياتي أشياء، وكان أثمن ما تعلمت هو اليأس من وفاء القلوب.

وأقسم بالله وبالحب ما خططت هذه العبارة إلا وأنا أقاوم طغيان المدامع، فمن الحسرة واللوعة أن أنفض يدي من العواطف بعد أن جعلتُ الكتابة في العواطف مذهبا أدبيا له أنصارٌ وأشياع في سائر الأقطار العربية.

ولكن خيبتي في الحب لها أسباب.

وآه ثم آه، من الاعتراف بالخيبة!

ليت ضلالي في هواي كان دام حتى أخرج من دنياي وأنا موصول العطف على الملاح! فإن سألت عن أسباب القطيعة بيني وبين ليلى المريضة في الزمالك فإني أحدثك بأن تلك الأسباب ترجع في جملتها إلى سبب واحد هو العظمة الحقيقية التي فطر الله عليها قلبي.

ومعاذ الأدب أن أكون من المفتونين أو المخدوعين، فلي قلبٌ ما عرف الناس مثل جوهره النفيس في قديم أو حديث.

هو قلبٌ فطر على الحب والعطف والوفاء.

وقد شاء هذا القلب أن يبسط حنانه على ليلى المريضة في الزمالك.

فماذا صنعت تلك الحمقاء؟

***

لا تسأل كيف كنا إلى خريف سنة ١٩٣٧.

كنا عاشقين.

وما أسعد العشاق!

كنا نعرف أطايب الخلوات على شواطئ النيل.

وما أسعد من يستصبحون بظلام الليل على شواطئ النيل!

كان قلب ليلى أصغر من قلبي.

ولكنها مع ذلك كانت تملأ قلبي، وهو قلب يرضى بالقليل في بعض الأحيان.

وكنت أتلقى القليل من عطف ليلى بالحمد والثناء.

والذوق كل الذوق أن نفرح بالقليل من الملاح.

كانت ليلى تعد وتُخلف، وكنت أرى إخلافها من الدلال.

obeikandl.com

وكنت أروضها بنفسي على الإخلاف، لأني كنت أحب أن أخلق منها دمية روحانية أعاقر في محياها كئوس النبل والصفاء.

وكان ما أردتُ وأراد الحب العذري حينا من الزمان.

أردنا مرة أن نؤلف رواية ...

فهل ألفنا الرواية؟

ليتنا ألفنا الرواية!

آه من ليلى ومن زماني!

***

ودامت دنيانا في قبض وبسط، وبؤس ونعيم، إلى مساء اليوم الثامن عشر من الشهر التاسع سنة ١٩٣٧.

ففي ذلك المساء تفضلت ليلى فدعتني إلى تناول العشاء لتمنحني القُبلة الموعودة قبل رحيلي إلى العراق.

وكانت لحظة من الحياة لن أنساها ما حييت، وإن كدرتها ليلى بعد ذلك.

أحبك يا ليلى، أحبك لتلك اللحظة التي بلبلت نجوم السماء.

أحبك يا ليلى وإن صيرت حياتي بؤسا في بؤس، وشقاء في شقاء.

أحبك يا صغيرة القلب، ويا ضعيفة العقل، ويا قليلة الوفاء.

أحبك يا مثال النزق والطيش والجنون.

obeikandl.com

أحبك لتلك اللحظة القصيرة التي بَدَّدت أضواؤها ظلمات قلبي.

***

وفي اليوم التالي رحلتُ إلى بغداد وأطيافُ الزمالك تؤنس روحي.

ثم سمعت ليلاي في الزمالك أني تعرفت إلى ليلى المريضة في العراق.

فماذا صنعت الحمقاء؟

أرادت أن تنتقم مني ففتحت أبواب قصرها للواغلين من أدعياء الأدب والبيان.

ولم تكشف بذلك، بل أعلنت غضبها عليّ في رسائل نشرتها في مجلة الصباح.

وأسرفت الشقية في الحمق فنشرت في مجلة المصور أخبار سهرة تناول فيها السامرون عندها أكواب الصهباء.

وكانت الشقية تعلم أن ذلك سهم سيصيب صدر حبيبها في العراق.

ولكني تجلدتُ وتماسكتُ، وكتبتُ إليها أعتِب في رفقٍ ولطف.

فأجابت الحمقاء:

«هل كنت تنتظر أن أضع يدي على خدي إلى أن ترجع من بغداد؟».

خبر أسود!

خبر أسود!

خبر أسود!

كذلك هتفتُ كما يهتف الفلاح المصري حين ينزعج، وعبارات الفلاحين تسبق إلى لساني حين يثور غضبي.

إن ليلى المريضة بالزمالك لا تريد أن تضع يدها على خدها حتى أرجع من بغداد، وهي تعرف أني هاجرت إلى العراق لغرض نبيل هو توثيق علائق المودة بين مصر والعراق.

وهل تفهم المرأة هذه المعاني؟

آمنتُ بالله، وكفرتُ بالحب!

***

أما بعد فقد انتهى ما بيني وبين ليلى المريضة في الزمالك، وقد حرّمتُ على نفسي رؤية الزمالك إلى أن أموت، فحدّثوني يا رفاقي عن أضواء الزمالك وأيام الزمالك وليالي الزمالك، حدثوني كيف يغني الكروان في الزمالك، حدثوني كيف تكون أشجار الزمالك في الليل، حدثوني كيف يثبُ النيل ليقبل أقدام الزمالك، حدثوني كيف تصبر عني ليلاي في الزمالك؛ حدثوني كيف تغيب الشمس عن الزمالك، وكيف يطلع القمر على الزمالك، وكيف تثور عواصف الحب والبغض في الزمالك.

حدثوني، حدثوني، حدثوني.

انتهى حُلم الحب، وانتهت أيام الزمالك، وانقضت ليالي الزمالك.

تلك الزمالك لم تكن إلا قطعة من وطني، ولو شئت لقلت: إنها قطعة من كبدي. في الزمالك تعلمت طب الأرواح والقلوب.

وبالزمالك شقى روحي ومرض قلبي.

فأين السبيل إلى الرجاء؟ بل أين السبيل إلى اليأس؟

أحبك يا غادة الزمالك، أحبك يا غادة، وأعشق ضلالي في هواك النبيل وهواك الأثيم. ليلاي، ليلاي.

مازال روحي الظامئ يحوم على وِردك النمير، فارحمي الطائر الذي يرفرف حول حِماك في السحر والضُّحى والأصيل، ويخفق بقلبه وجناحيه كلما لذعهُ الشوق إلى صهباء الرُّضاب.

أنا مشتاقٌ إلى الكوثر الممنوع الذي كانت قطراته تُسكرُ روحي وتعقِر فؤادي.

أنا مشتاقٌ إلى النار التي كوت كبدي فمتى أواجه تلك النار العصُوف؟

سأقبل قدميكِ حين أراك يا شقية، ولكن متى أراك؟ متى أراك؟

أفي الحق أننا تخاصمنا إلى آخر الزمان؟

أفي الحق أن غربدة الهوى لن تعود؟

لقد شمت فينا الشامتون، فمتى يندحر الشامتون؟

إنني واثقٌ بطهارة قلبك يا شقية، ولولا ذلك لأصليتُك نار العقوق.

فحدثيني متى ترجعين إليّ؟ متى ترجعين؟ متى ترجعين؟

***

ليلى، ليلاي التي خرجتُ من حِماها كما خرج آدم من الفردوس، ليلاي أجيبي.

مضت أعوام وأنا أتلقى منك تحية رمضان، فأين تحية رمضان؟

إن الناس يذكرون موتاهم في هذه الأيام يا معبودتي، وأنا قتيل الهوى، فمن يذكرني إذا صدفتِ عني؟

لا تؤاخذيني بما جنيتُ في حب ليلى المريضة في العراق، فما كانت ليلاي هناك إلا صورة من صور الطهر والنبل والعفاف.

أحب ليلاي في العراق، وإن تأذيت بذلك، فاصنعي ما تشائين.

أيتها الحمقاء في الزمالك!

لا أحب أن أراك إلا يوم تعرفين أني صاحب الفضل على جميع الملاح، فلولا قلمي ولولا بياني لصارت الصبابة ألعوبة من الألاعيب.

أنتظر أن تكون دنيا الصباحة والملاحة طوع يدي.

فإن لم تفعلي —وستفعلين— فودعي دنيا الرفق والحنان.

ليلى، ليلاي.

إلى صدري يا عروس الزمالك.

إلى صدري يا جارة النيل.

إلى صدر العاشق الوفي الأمين.

أنا في هذه الأيام فريسةُ الكدح والتعب والعناء:

أنا أشغل ثلاث مطابع في وقت واحد لأخرج «وحي بغداد» ولأخرج الجزء الأول والثاني من كتاب التصوف الإسلامي.

ويظهر أني لن أرى الإسكندرية في هذا الصيف ولن أرى جنيات الشواطئ إلا في عالم الأحلام.

وكيف يتسع الوقت للطواف بالشواطئ وأنا أشغل وقتي بالتأليف والتصحيح من الصباح إلى منتصف الليل؟

والسهرات التي أقضيها بمصر الجديدة بعد أن تنام العيون لم تستطع أن تمحو حزني على فراق شارع فؤاد.

والمجلات تتكلم عن المصايف كلاما جذابا، ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تخرجني من عزلتي، ولم تنقلني إلى الشاطئ الذي قال فيه أحد الشعراء:

رعاه الحبُّ من شطٍ جميلٍ ... خفيف الروح مصقول أنيقِ
بهي الرمل تحسبهُ سُجوفا ... مُطرّزةً بحبات العقيق
أطوف به فيغلبني خشوعي ... كأني طفتُ بالبيت العتيق

***

أيا حَرَم الظباءِ أنرتَ روحي ... بمشكاةٍ من الحسن الرفيق
يراك الأكمهونَ حمى مُباحًا ... يذكّرهم بأسواق الرقيق
ولو كُشِفَتْ غِشاوتهم لقالوا ... صبايا الخلد تسبح في الرحيق

فهل رأى الناس شاعرًا قبلي يزهد طائعا في فراديس الشواطئ بالإسكندرية ودمياط وبورسعيد، ويجني على نفسه بالبعد عن شواطئ النيل في الصيف؟

أتمضي ليالي الصيف لا تنقَعُ الجوى ... مباسمُ بالعذب النمير تجود؟

ويدرُج في مَغْدَاهُ أســـوانَ صاديًا ... فؤادٌ بأثقال الشجون يمـــيد؟
وتخلو مغاني النيل من لهو فاتكٍ ... له من ربُاها جَنَّةٌ وخلـــود؟
ويحيا أسيرَ الحزن في مَيْعة الصِّبا ... فتًى مَرحٌ طاغي الشباب مَريدُ؟

الحق أني أسأت إلى نفسي في هذا الصيف، فقد حرمتها دواعي الوجد، ولم يسعفني الخيال بغير هذا القصيد:

تجاهلتُ أياما هيامي لعلـــني ... أتوب إلى رشدي فأرجع عن جهلي
ولم أدرِ أن الحب يَسرِي ضَرِيمهُ ... ليَعصِفَ بالباقي المشرَّد من عقلي
فأين المفرُّ اليوم من فتكِ لـوعةٍ ... مضرَّمة الأقباس مسمومة النَّصل
أكابد في بأسائها كلَّ لحظـــةٍ ... شدائدَ من وجدٍ عَصُوفٍ ومن خَبْل

***

لقد كنتُ ودَّعتُ الصبابات وانقضتْ ... ضلالةُ أحلامي لدَى الأعينِ النُّجْلِ
فكيف أراني عُدتُ وَلهَانَ صـــاديًا ... أبيتُ على هَمٍ وأصبح في شُغلِ

***

إلى أين يا قلبي؟ إلى أين؟ إننـــي ... أخاف عليك اليوم عادِيةَ القتل
أمَا لك في الماضي المضرَّجِ عِبرة ... ألم تشرب الآلام سَجْلا إلى سَجْل
إلى أين؟ حدِّثني، فلم تبقَ لي قُوَى ... أصدُّ بها جيش الملامة والعذل
طوتني خُطُوبُ الوجدِ طيًّا فلم أعُد ... أتُوقُ لِجَدٍ في الغرام ولا هـزلِ

***

هوَاكَ الذي تهـوَى لئيمٌ يَسُـــرُّهُ ... ضلالك بين الظلم والحتف والويلِ
هواك الذي تهواه قاسٍ وإن يكـنْ ... أرقَّ من الزهر المصبَّح بالطَّـل
هو الورد أشواكًا هو الوَبْلُ نِقمـةً ... هو الرفقُ رِفقُ الهولِ في غَسَق الليل
هو الراح تسري في السرائر خِفيةً ... ليُمسِي بها النشوانُ في قبضةِ الغَولِ
حِذارَكَ منهُ يا فؤادي فإنـــهُ ... وإن يكُ بسّامًا لأخْبَثُ من صِل

***

إلى حُبِّهِ يا قلبُ سارع ولا تَخَفْ ... فظُلم الملاح الهُوج أندَى من العدل
إلى قلبه الظَّلام خُذْني فإننـــي ... أحبُّ ظلام الليل والحبِّ والهول

عَدِمتُ فنائي فيه إن كنتُ أشتهي سِوَى طبعه المشوبِ بالغدر والختل

***

أحبك يا صِنْو الزمان الذي قسا فلطِّفْ من طبعي وخفف من جهلي[1]
أحبك وليصنعْ بنا الدهر صُنعَهُ فللدهر أو للحب مثلك أو مثلي

***

ولكن هذا الصيف الأجرد وقعتْ فيه أشياء تستحق التسجيل:

أنا أتلقى في كل يوم أخبار ليلى وظمياء، وتصل إليّ جرائد بغداد بلا انقطاع، يرسلها أديب لم أعرفه في بغداد، وهو السيد عبد القادر أحمد، أراني الله وجهه بخير وعافية، وجزاه عن الأدب والذوق خير الجزاء.

وفي جرائد بغداد قرأتُ أن جريدة «العُقاب» تقترح أن أمنح لقب «ابن بغداد». ثم قرأت أن جريدة «اليوم» تقترح أن أمنح لقب «ابن العراق».

فما هذا الكرم يا أبناء الرافدين؟

ابن بغداد؟

ابن العراق؟

أهلا وسهلا، فأنا بإذن الله أخوكم الشقيق ما حييتُ.

أنا ابن بغداد وابن العراق، لأني وقفتُ وقفة الأسود أدفع التهم الكواذب عن بغداد والعراق.

فهل يعرف العراقيون كيف وقفت ذلك الموقف؟

---

(١) الجهل هنا ضد الحلم، فهو الحدة والطيش.

الله يشهد أني فكرتُ في خدمة مصر قبل أن أفكر في خدمة العراق.

ومع ذلك اتهمني الغافلون بأني أجامل أهل العراق.

وهل يكون من المجاملة أن نقول كلمة الحق؟

لم أرد –يشهد الله– إلا أن أحفظ لوطني مكانةً في قلوب الصناديد من أهل العراق. فإن كان العراقيون رأوني أديتُ لوطنهم خدمةً حين دفعت عنهم قالة الزور والبهتان فذلك منهم تلطف وترفق، وستحفظ لهم مصر هذا الجميل.

أنا ابن بغداد؟ أنا ابن العراق؟

إن من الشرف العظيم أن أكون ابن بغداد وابن العراق.

لم يبق في نفسي إلا كلمة أقولها لكم، يا أبناء الرافدين، وهي دعوتكم إلى الثقة بأن المصريين يحبونكم أصدق الحب ويرونكم إخوانهم الأشقاء.

وما رأيتموه من عُنف الصحافة المصرية لم يقع إلا لهول فاجعة كلية الحقوق.

أنا ابن بغداد؟ أنا ابن العراق؟

الحمد لله الذي كتب أن أكون موصول العهد بأهل العراق.

الحمد لله الذي جعل لي مقام صدق في البلاد التي رفعت لواء الحضارة الإسلامية.

الحمد لله الذي قضى أن أذكر بالخير في المدينة التي فيها شارع العباس بن الأحنف وشارع صريع الغواني.

الحمد لله الذي تفضل فوصل قلبي بالغُرّ البهاليل من أهل العراق.

الحمد لله الذي رفع اسمي في بلادٍ تحفظ الصنيع.

الحمد لله الذي أعزني في وطن ليلى وظمياء.

***

إخواني في بغداد.

أشكر لكم ما حبوتموني من لطف وعطف.

ثم أعترف بأني أغار غيرةً شديدةً على سمعة العراق.

فهل أنتظر أن تغاروا على سمعة مصر كما أغار على سمعة العراق؟

إني أرجوكم أن تحفظوا عهد البلد الذي أحبكم أصدق الحب، ورحب بأخوّتكم أجمل ترحيب.

في مصر ذخائر من الأدب والذوق، وإن خفيت عنكم بعض الخفاء.

إن مصر تنتظر أن يكون لها سنادٌ من عواطف أهل العراق، فكونوا عند ظنها الجميل.

أرجو أن تذكروا أني لم أتفرد بالصدق في هواكم، فلكم في مصر أصدقاء يعدون بالملايين.

ثقوا، أيها الإخوان، بأننا أقسمنا أمام الله وأمام الضمير بأن نحفظ العهد.

obeikandl.com

ثقوا بأننا نؤمن أن الوفاء هو أكرم ذخائر الرجال.

أنا ابن بغداد، أنا ابن العراق.

أنا ابن بغداد، أنا ابن العراق.

أنا أخٌ صادق لأبناء دجلة وأبناء الفرات.

أنا الصب المشغوف بالبلاد التي عرفتْ بكاء الحمائم، وظلام الليالي، ونور القلوب.

أحبك يا مهدَ ليلى ويا وطن ظمياء.

وأرجو أن تحب مصر كما أحب العراق.

***

أنا أتلقى في كل يوم مجموعة من الجرائد العراقية، فأقضي في تصفحها ساعةً أو ساعتين لأستخرج الفقرات التي تساعد على وضع كتاب عن حياة التعليم في العراق، ولأتعقب سير الحياة الاجتماعية في بغداد.

والوقت الذي أقضيه في مراجعة تلك الجرائد يؤنس روحي كل الإيناس لأنه ينقلني إلى الجو الذي يعيش فيه أصدقائي هناك.

ولكني أنظر فأرى جريدة «العراق» تقول:

أستاذ الآداب العربية

في دار المعلمين العليا

علمنا أن وزارة المعارف قد طلبت إلى المفوضية العراقية في مصر أن تراجع ذوي الشأن في مصر لانتداب أحد أساتذة الآداب في مصر للقيام بتدريس الآداب العربية في دار المعلمين العالية بعد أن أبدى الدكتور زكي مبارك إصرارا على عدم تجديد عقده للسنة الدراسية القادمة.

***

وعندئذ أعرف أني لن أرجع في السنة المقبلة إلى العراق.

أنا أصررتُ على الاعتذار عن الرجوع إلى بغداد؟

هذا حق.

ولكن كيف وقعتُ في ذلك الغلط الفظيع؟

ندمتُ على ما كان مني –فقدتني– كما يندمُ المغبون حين يبيعُ

لو كنت أعلم أني سأشتاق هذا الاشتياق إلى العراق لما أصررت على الاعتذار عن الرجوع إلى منصبي في بغداد.

وما قيمة الحرص على طبع كتاب «التصوف الإسلامي» والحرص على تسوية حالتي بوزارة المعارف المصرية بالقياس إلى الحرص على جوّ المدينة السحرية التي أوحت إلى قلمي خمسة آلاف صفحة في أشهر معدودات؟

لقد نصحني العشماوي بك وعوض بك وفهيم بك ودعوني إلى مراعاة عواطف أهل بغداد، ولكني جهلت قيمة ذلك النصح الثمين، وأصررت على الاعتذار لأخرس الألسنة التي قالت: إني أدافع عن أهل العراق لأحافظ على منصبي في بغداد.

أنا نادمٌ نادم، ولكن ما فات فات.

***

أيها العراق النبيل.

تذكر أني وقفتُ بجانبك يوم خذلك أصدقاؤك.

تذكر أنني لم أخُنْك في سرّ ولا علانية.

تذكر أنني عرضت سمعتي في سبيلك إلى أقبح الشبُهات.

تذكر أنني خاصمتُ فيك أهلي وقومي.

تذكر أن أحاديثي عنك وصلتْ إلى أسماع المشرقَين والمغربين.

تذكر أنني أديتُ إلى بغداد ما لم يؤدِ بعضه بييرلُوتي إلى استامبول.

وقد حفظ الأتراك فضل بييرلوتي، فهل تحفظ فضلي أيها العراق النبيل؟

ستُسأل عن ذلك أمام الله وأمام التاريخ.

***

وأنت يا مصرُ، ماذا تريدين مني؟

كنتُ لك سفيرا نبيلا في الشرق.

فماذا تريدين أيتُها الظلوم؟

ماذا تريدين، وقد وصلتْ مؤلفاتي إلى كل بلد يذكر فيه اسم الله واسم الرسول؟

obeikandl.com

ماذا تريدين، يا مصر؟ أحب أن أعرف ماذا تريدين؟

***

الآن، وبعد أشهر قضيتُها في كروب من حُزيران إلى أيلول، أترك الحديث عن ليلى المريضة في العراق.

فإن كنت آذيتك يا ليلى فاغفري ذنبي.

سامحيني، يا ليلى، فأنا أضعف من أن أحتمل العتاب.

سامحيني، يا ليلى، واذكريني بالخير عند قومك الأبرار، فأنا أذكرك بالخير عند الأبرار من قومي.

سامحيني، يا ليلى، فأنا رجلٌ مودِّع، والمودِّع تُغفَر له جميع الذنوب.

إن عشتُ، يا ليلى، فسأطوِّق جِيدك الأغيد بطوقٍ نفيس من المعروف.

وإن لم أعش فحسبُك هذه المذكرات؛ وأغلب الظن أنها ستنشر قبل أن أموت.

خلعتُ على الدنيا جمالك فانثنتْ تَخايَلُ في طيبٍ وحُسن ولألاءِ

تذكري، يا ليلى، أني قلت في بغداد أضعاف ما قلت في القاهرة وباريس.

تذكري، يا ليلى، أني كنت أصدق صاحب وأشرف صديق.

تذكري أن دجلة مرتْ عليها أزمانٌ طوال ولم تسمع مثل عتابي في قصيدة:

«من جحيم الظلم في القاهرة إلى سعير الوجد في بغداد».

تذكري، يا ليلى، أنيّ أصدق من استصبح بظلام الليل في مدينة الرشيد.

تذكري، يا ليلى، أني أصدق من ضللته العيون السود.

تذكري، يا ليلى، أن العيون الخضر لم تر في أرجاء العراق غير الجميل.

تذكري، يا ليلى، أنني عانيتُ فيك ما لم يعان قيسٌ في ليلاه.

***

أما بعد فقد تنفس الصبح في اليوم التاسع والعشرين من شهر أيلول سنة ١٩٣٨. وسيكون من واجبي أن أسلم نفسي لوزارة المعارف المصرية لتوجه جهودي كيف تشاء. أنا منذ الغد موظف في الحكومة المصرية ومسئول أمام القاهرة لا أمام بغداد.

فمن شاء أن يعرف كيف حالي فأنا أسير ليلى المريضة في العراق وأسير الليليات في الزمالك والجيزة ومصر الجديدة ودمياط وحلوان وأسيوط.

أنا منذ الغد مسئول أمام حكومة مصر، ولكن قلبي سيظل أبد الدهر مسئولا أمام الأمة العراقية.

فيا أصدقائي في ضفاف الرافدين تذكروا أن لكم صديقا وفيا في ضفاف النيل.

***

أحبك، يا ليلى، وأشكو من فراقك ما شكوتُ يوم فارقت أبي وأمي.

إلى الله أشكو فقدَ ليلى كما شكا إلى الله بعد الوالدين يتيمُ

لن أرجع، يا ليلى، إلى العراق، ولك الأمر فاصنعي ما تشائين.

ومن بينات الحب أن كان أهلها أحب إلى قلبي وعيني من أهلي

وإلا فكيف صح أن أحب الفرات أكثر مما أحب النيل!

إلى اللقاء، إن كان لمثلي أمل في البقاء.

أحبك، يا ليلى، فاذكريني بالشعر يوم أموت.

وكيف يموت من يرقم اسمه على جبين مصر وجبين العراق!

كيف يفنى من يخلد اسم السين والنيل ودجلة والفرات!

الفناء لأعدائي.

أما طبيب ليلى فله الخلود.

سيدي الدكتور زكي مبارك

بعد السلام

فقد أرسلت لك كتاب مطولا ومفصلا ولم يأتني الجواب وقلت: يمكن أشغلتك بلادك وأهلك ونسيت من لا ينساك وقد هاج قلبي وتأكدت عندي خيانتك عندما قرأت كتاب ليلى في الزمالك، وكيف أنك نسيتها وثبت على نسيانها وثم قرأت كلمة الرفض حول تدريسك في السنة المقبلة فسأنسب لك أمرين أحلاهما مر وخيرهما الأمر إما (خائن

للعروبة وكافر بالحب) أو جبانا، أما الأولى فهي بك وأما الثانية فلم أعهدها بك. اصدق وأخلص يا أخي لا ينفع غير الصدق والإخلاص والله مع المحقين، أين هو حقك حتى يكون الله معك لا أريد أكتب لك أكثر من هذا لأن الهياج أخذ ما أخذه مني كيف ثم كيف تسلب قلبي وتتركني لقد تفرغت قليلا. أنت رجل تحب الغوامض وهأنا كتبت لك كتابي ولم أعلمك بنفسي سوف أرى هل يمكنك أن تميزني من بين ليلاتك الكثيرات أكبر درس وصفت للعراقيين وأكبر جناية جنيت على ليلاتهم لا ينفع إلا الصبر والإخلاص والصدق.

ولك أصدق التحيات تذكر تذكر من تذكرك أكثر مثلما تذكر نفسك أنت الآن عارفة بخطئي وصوابي في كلماتي هذه فقلتها عمدا حتى أسدد الطرق عليك ( ) ولها ولها ولها يسلمون عليك وأنا بدوري أقبلك قبلة من وعدت وأخلفت أعتذر منك ثم أعتذر منك. ماذا أقول لك وبمن أستعين عليك عنواني تجده في الكتاب الأول الذي وصلك وأهملته وأقبلك يا حبيبي أقبلك ولا تنسى.

ليلى

١٩٣٨/٧/٢٤ حل هذه العقد

***

أنا في هذه الأيام بعافية من مرض الحب.

ومن شواهد العافية أن ليلى لا تخطر في البال أكثر من مائة مرة في اليوم، ولا يؤرق خيالها نومي غير مرة أو مرتين في كل ليلة، والطيف

ينقلها إليّ راضية مرضية، فلا عتاب ولا ملام وقد تسلمتُ عملي في وزارة المعارف في مطلع تشرين الأول.

ولكن أي عمل؟

إنه عملٌ طريف لم تُسنده وزارة المعارف إلى أحد من قبل: وهو التفتيش على المدارس الأجنبية بالديار المصرية. وما اختارني قومي لهذا المنصب إلا وهم يعزفون أني أصلح الرجال للاتصال بالأجانب، ويفهمون أني أقدر الرجال على رفع دعائم اللغة العربية في المدارس الأجنبية.

وقد صرح سعادة العشماوي بك بأنه مستعد لتنفيذ كل ما أقترح في سبيل تقوية اللغة العربية في تلك المدارس.

والواقع أن التجارب أثبتت أني لا أصلح لغير السفارة بين مصر وبين من تعامل من الأمم الغربية والشرقية: فأنا حين أتولى عملا مصريا صِرفا أملأ الدنيا بالمشاغبات والمناوشات والمصاولات، وقد أصل في ذلك إلى حدود من العُنف يأباها الذوق السليم، ولكني حين أتولى عملا يقضي بأن أكون سفيرا لوطني أترفقُ وأتلطف، وأؤديه تأديةً صحيحةً يراها المنصفون غاية ما يتسامى إليه العقلاء.

وأيامي في العراق هي من شواهد هذا الغرض الشريف: فقد قضيتُ أيامي هناك في كدحٍ دائم وكفاحٍ موصول، وكنتُ حريصا أشد الحرص على أن يفهم العراقيون أن المصري خليق بأن يظفر بثقتهم الغالية، ومضيت أبدد التهم التي أراد المُغرضون أن تسوء بها سمعة مصر في بلاد الرافدين. ولم أكتف بذلك: بل شاركتُ العراقيين في أفراحهم وأحزانهم، واتصلتُ بالشعب نفسه فساقيتُه كئوس الوداد في مختلف البلاد العراقية،

وشربت ماء الفرات، شربتُه صِرفا وهو ممزوج بالطين فرأيته أشهى من الرُّضاب المعسول.

وكان في نيتي أن أقترن بالفتاة «الملثوغة الراء» ولكني خشيتُ أن تموت زوجتي مقتولةً بالغيرة؛ فهل يكتبُ الله لأحد أبنائي أن يتشرف بمصاهرة العراق؟

إن في صدر المرأة العراقية كنوزا من العطف والحنان، وفيها شمائل كثيرة من الأمانة والصدق؛ ألم يكف أنها أنجبت الصناديد من أبطال الحرب والقتال؟

ألم يكف أنها استطاعت أن تنتصر على الطبيعة الهوجاء في العراق؟

***

أنا اليوم أواجه الأجانب في مصر بقلبٍ راضته الأيام بعد الجموح.

أنا اليوم أحاول أن أوجه الأجانب إلى خدمة اللغة العربية. فهل أفلح؟

إن ذلك ليس بالمستحيل، وكيف يكون مستحيلا وقد استطعتُ من قبلُ أن أرفع دعائم اللغة العربية بمعهد الليسيه بالقاهرة يوم كنتُ أستاذا بذلك المعهد؟

اتصلتُ بمعهد الليسيه في سنة ١٩٢٨ فرأيت تعليم اللغة العربية هناك مزاحا في مزاح، ثم صح عندي أن الفرنسيين الذين عرفتهم قبل ذلك في باريس لا يمكن أن يكونوا مازحين، ورأيت الخير كل الخير في دعوتهم إلى تقوية اللغة العربية في الليسيه ففرحوا بذلك وأفهموني أن غايتهم الأصيلة هي الظفر باكتساب ثقة الأمة المصرية.

ولما اشتركتُ في مؤتمر المسيون لابيك في باريس سنة ١٩٣٣ وقفت أصاول المسيو هريو لأفهمه أن الثقافة الفرنسية لن تجد أصدقاء في مصر إلا إذا اهتم الفرنسيون بالمشاركة الجدية في إحياء الثقافة العربية.

واتفق بعد ذلك أن اعترفت الحكومة المصرية بالشهادات التي تمنحها كلية فيكتوريا في مصر وأعطت حامليها جميع الحقوق التي يتمتع بها حملة البكالوريا المصرية فنشرتُ في جريدة البلاغ مقالا بينت فيه الخطر الذي يهدد الثقافة المصرية، وقد قلت في ذلك المقال:

«والآن –بعد هذه الصدمة– لننظر ما سيكون في الغد، ولسنا في حاجة إلى منجم ولا عراف ولا بديهة كبديهة وزير المعارف لنتنبأ بما يخبئه الغد، فإن هذا معروف منذ هذه اللحظة: فسيتوجه في الغد القريب جدا سفراء الدول الأجنبية ليطلبوا لمدارسهم نفس الحقوق التي أعطيت لكلية فيكتوريا، وسيحرص وزير فرنسا بنوع خاص على كسب هذه الحقوق: لأن الفرنسيين أكثر الأجانب مدارس ومعاهد في هذه البلاد، ويومئذ تقف الحكومة المصرية بين نارين: نار الرفض ونار القبول، فإن رفضت كان معنى ذلك أنها حكومة متجلنزة تخص الإنجليز بالطيبات صدقا أو رياء، وإن قبلت كان معنى ذلك أنها تصوب السهم طائعةً إلى صدر الثقافة المصرية»[1].

ويظهر أن شخصا من «أولاد الحلال» سارع فترجم هذه الكلمة إلى المسيو دي كومنين فعاتبني بحضرة الأستاذ كانيري فقلتُ له ما ترجمتُه:

«لن أكون صديقا صحيحا لفرنسا إلا بعد أن أكون مصريا صادقا».

---

(١) تجد هذا المقال في الجزء الثاني من كتاب «البدائع» وفيه تفصيل ما اقترحته لتقوية الثقافة المصرية بالمدارس الأجنبية.

فتهلل وجه الرجل بعد عُبوس وقال ما ترجمته:

«إن فرنسا التي تفردت بصدق الوطنية لا تستطيع أن تعادي الوطنيين الصادقين».

وانقضت السهرة بسلام.

***

أنا اليوم رجل نافع جدا، وطبيب ليلى خليقٌ بأن يستمد من روحها معاني الصدق والشرف.

أنا أدخل المدارس الأجنبية بلا استئذان: لأن الأجانب يعرفون أني لا أحاول السيطرة عليهم، وإنما أحاول معاونتهم على كسب ثقة الأمة المصرية، وهم لن يصلوا إلى ذلك إلا إذا أمكنوا تلاميذهم من ناصية الثقافة العربية.

وما دخلتُ مدرسة أجنبية إلا حولتُ أصحابها إلى أصدقاء أوفياء.

وقد هدتني التجارب إلى أن أنفع سلاح هو الصدق: فأنا لا أوارب ولا أخاتل، وإنما أصل إلى غرضي بأساليب صريحة لا تعرف الالتواء ولا الاعوجاج.

أنا اليوم على صلات وثيقة بأصحاب المدارس الفرنسية والأمريكية والإسرائيلية والأرمنية واليونانية ومن إليهم من الأجانب، وهم جميعا يعرفون أني أعاونهم على أشرف غاية يتسامون إليها وهي الظفر بثقة الأمة المصرية.

وليس لي في معاملة هؤلاء الناس أسرار مكتومة أحاول الوصول إلى تحقيقها بالختل والمراوغة واللين، وإنما أنا مصري صادق يسعى إلى غرضه في وضح النهار بلا بغي ولا عدوان.

وأقسم بالله وبالشرف إني لم أتلق أية إشارة من وزير المعارف بتنفيذ سياسة خاصة في المدارس الأجنبية، وإنما أوصاني الوزير والوكيل بالدعوة إلى الحق، وهي أن تكون اللغة العربية لغةً خليقةً بالسيادة في بلاد حفظت تُراث العرب بعد سقوط بغداد على أيدي التتار والمغُول، ونبهاني إلى أن لمصر في تلك المدارس أبناء أعزاء، وأن من الواجب أن تحرص مصر على أن لا يفوتهم التفوق في اللغة القومية.

***

استطعت في هذه الأيام أن أدخل مدارس لم يدخلها المفتشون المصريون من قبل، فما هي الخصوصية التي دخلتُ بها إلى قلوب الأجانب؟

هي الصدق.

هي الصدق.

هي الصدق.

والرجل الصادق يُذيب الصخر ولو كان من الكافرين.

وفي مدارس الأجانب مدرسة واحدة بحي الفجالة صرح مديرها بأنه مستعد لقبول إشراف وزارة المعارف على شرط أن يضمن أن لا يرى غير وجه الدكتور زكي مبارك.

فليعرف هذا المدير أنني لم أتفرد بصدق النية بين المفتشين المصريين، ففي وزارة المعارف رجالٌ فضلاء يملكون من صدق النية أكثر مما أملك.

في وزارة المعارف المصرية كنوز مخبوءة من العزائم والقلوب، ولكن لم تتح الفرص التي تقضي بأن تبلوهم الأيام كما بلتني الأيام.

لو أتيح لتلك العزائم والقلوب أن تقف على الجمر كما وقفتُ، وأن ترى اصطخاب العواطف في باريس وبغداد كما رأيتُ، وأن تفهم أن مصر صلة الوصل بين الشرق والغرب كما فهمتُ، لو أتيح لأحد زملائي أن يذرف الدموع على مصير وطنه كما ذرفت غاليات المدامع على مصير وطني، لو أتيح لهم شيء من ذلك لعرفوا أن من القليل أن يشقى المصري في سبيل مصر الغالية.

إن أحمال مصر أحمال ثِقال: لأنها تريد أن تكون عند ظن الشرق.

وماذا يريد الشرق؟

هو يفهم أن مصر عندها العلم وعندها المال، وفي مقدورها أن ترفع دعائم القومية العربية والبخل قبيح حين يصدر عن العلماء الأغنياء.

***

خذوا الدرس عن طبيب ليلى، يا بني وطني.

وليلى علمتني أن أكون شجاعا وأن أكون كريما، وسأظل على هذه الأخلاق إلى أن أموت، فهل تذكرونني بالخير يوم أموت؟

لقد غنمتُ لكم ثقة الأجانب في مصر وثقة العرب والمسلمين في الشرق، فهل تحفظون هذا الجميل؟

لا تؤاخذوني إذا طالبتكم بالوفاء، فهذا درس ستعرفون قيمته بعد حين.

إن مصر هي أعظم أمة عربية، ولكنها لا تقول: إنها عربية.

فما هذا الحمق؟

وما هذا الخبال؟

إن مصر تصرح في كل لحظة بأنها أمة عربية، مع أنها تعلم بأن العروبة هي مصدر الإسلام.

إن عشتُ لكم، يا أهل مصر، فسأوجهكم إلى وجهة الحق.

وإن متُّ –وعُمرُ الصادقين في مصر أقصر من عُمر الوَرد– فستكون هذه المذكرات وصيتي إلى أمتي.

***

أنا في هذه الأيام سعيدٌ لأنني أخدم وطني.

ولكن يؤذيني أن ليلى بعيدة مني.

كنت أريد أن أستصبح بوجهها فيما أعاني من مُشكلات ومُعضلات.

كنت أريد أن آوي إلى صدرها في كل مساء بعد الفراغ من عناء الأعمال.

كنتُ أحب أن لا تتركني لرعاية ليلى المريضة في الزمالك، الزمالك التي يعبُرها شارع فؤاد، ويا لوعة القلب من سِحر الأصائل والعشيات في شارع فؤاد!

أمثلي يحرَّم عليه أن يصطبح ويغتبق في شارع فؤاد؟

في سبيل الواجب أحرم نفسي من ملاعب القاهرة وأكتفي بخيال ليلى في تخفيف ما أحمل من ثقال الأعباء.

***

أنا وليلى، وليلى وأنا أخوان لا يفترقان.

أنا أحب العراق أكثر مما أحب مصر، وهي تحب مصر أكثر مما أحب العراق.

ومن بينات الحب أن كان أهلها أحبَّ إلى قلبي وعيني من أهلي

هي ترى السعادة في رؤية النيل، وأنا أرى السعادة في رؤية دجلة والفرات.

هي مجنونة وأنا مجنون، وما لذة العيش إلا للمجانين.

***

إلى صدري يا سمكة شط العرب.

إلى صدري يا حلوة، يا جميلة، يا فتّانة، يا ظلوم.

إلى صدري بمصر الجديدة في ليالي السرار.

إلى صدري، إلى صدري، إلى صدري.

إيش لون يصير!

إيش لون يصير!

أنا واللـــــه هالِكٌ آيسٌ من سلامتي
أو أرى القامة التي قد أقامت قيامتي

***

أصبحتُ بحمد الله والهوى جذوةً من الجد والنشاط، وقد فرغتُ من طبع كتاب (وحي بغداد) وسيظهر كتاب «التصوف الإسلامي» بعد أيام. وقد شرعتُ في طبع مذكراتي عن «ليلى المريضة في العراق» وأنا أستعد لأخرج الطبعة الثانية من كتاب «عبقرية الشريف الرضي» وسأضيف إليه دراسة مفصلة عن الشريف المرتضى، وبذلك أتمم في القاهرة ما فاتني إتمامه في بغداد.

***

ولكن الشواغل التي تساورني في هذه الأيام هي فهم المهمة التي أسندتها إليَّ وزارة المعارف، وقد أصبحت هذه المهمة عسيرة أشد العُسر: لأني أعالج هذا العمل أول مرة، ولأني أحب أن أنتصر في عملي بمصر كما انتصرت في عملي بالعراق. والله وحده هو المستعان.

يضاف إلى ذلك أني أغار من رجال المعارف أشد الغيرة، لأنهم يكافحون ويجاهدون، وكأنهم ليسوا بموظفين وإنما يدبرون ملكهم الخاص، وأنا أخشى أن يكونوا أصدق مني في خدمة الواجب.

***

والواقع أنني اليوم أجاهد بين تيارين عنيفين: تيار وزارة المعارف وتيار الجامعة المصرية ويُخيل إليّ أني قد أصبح من المغرقين، إن لم أستنصر بما في قلبي وعقلي من ذخائر الصدق والقوة:

فرجال المعارف لا يمكن الظفر بثقتهم إلا إذا صرت من كبار المفتشين، ورجال الجامعة لا يمكن الخلاص من طُغيانهم إلا إذا صرت من كبار المؤلفين.

وانتصاري على رجال الجامعة المصرية مضمون: فلن يسبقوني في التأليف ولو ركبوا متون الهواء، وسلطوا أفواههم على مسامع البرق.

أما انتصاري على رجال المعارف فلن يتحقق إلا يوم يظهر جليا أنني أدخلت رُوحا جديدا في تعليم اللغة العربية بالمدارس الأجنبية.

وكيف أصل إلى هذا الغرض؟

تلك هي النقطة، كما يقول لافُونتين.

الوسيلة الصحيحة هي اختبار المدرسين والتلاميذ لأعرف مواطن القوة والضعف في تلك العقليات، ولأعرف كيف ينظر أولئك وهؤلاء إلى تلك المدارس، ولأفهم ما بينهم وبين الأجانب من صلات.

وقد توهمتُ لأول وهلة أني سقطتُ في بُرج بابل، ثم عرفت بعد قليل أن الأمر أيسر مما توهمتُ.

الصعوبة في سياسة المدارس الأجنبية ترجع إلى فرعين:

الأول اكتساب ثقة النظار بتلك المدارس.

والثاني نوع التربية التي تصلح لتعليم اللغة العربية بالمدارس الأجنبية.

أما اكتساب ثقة النظار من الأجانب فلم أعانِ فيها إلا مشقة واحدة: هي إقناعهم بأنهم يعيشون في مصر، وأن من الواجب عليهم أن يراعوا ذلك وقد جاءوا من بلاد تؤمن بأن الثقافة يجب أن تلوَّن بانتقالها من إقليم إلى إقليم.

وقد اقترحتُ عليهم أن يجعلوا اللغة العربية لغة الدرس في جميع المواد ليعيش تلاميذهم في الجو الذي يعيش فيه تلاميذ المدارس المصرية، وليستطيع النظار أنفسهم أن يقولوا: إنهم يخدمون الثقافة المصرية.

وقد أدهشهم هذا الاقتراح حين سمعوه، ثم عادوا فاطمأنوا إليه وسألوني أن أمدهم بما يحتاجون إليه من الخرائط التعليمية باللغة العربية في المواد التي تحتاج إلى خرائط.

وكنت أظن أني أحرج وزارة المعارف حين أطلب منها تحقيق ذلك، ثم رأيت بعد أن زرت مخازن الوزارة أن عندنا كل ما يطلبُ الأجانب لتسهيل التدريس باللغة العربية، وحدثني سعادة العشماوي بك بأن الوزارة قد تقدم إليهم كل ما يطلبون بالمجان.

وقد فهمت وأنا أتنقل بين القاهرة والإسكندرية أن آباء التلاميذ بتلك المدارس يتشهون أن يتفوق أبناؤهم في اللغة العربية بجانب تفوقهم في اللغات الأجنبية، وهذه الرغبة المشروعة وصلت إلى آذان النظار بتلك المدارس: فهم يريدون أن يسايروا هذه الرغبة ليظفروا بثقة العائلات المصرية.

وهذه المسألة لا تهمني من حيث الشكل فقط، وإن كان الشكل هنا يعاون على تقوية القومية المصرية.

إنما الذي يهمني هو مصير الأدب العربي، فأنا أعتقد أن تلاميذ المدارس الأجنبية بمصر هم جيل مُخضرمٌ سيكون صِلة الوصل بين الشرق والغرب، وهؤلاء قد يمدون الأدب العربي بمحصول نفيس إذا استطاعوا إجادة الإنشاء باللغة العربية.

وانضمام هذا الجيل المخضرم إلى جيش الأدب العربي قد يعوض النقص الذي تتعرض له لغة العرب في هذه الأعوام، فالعرب في أعوامنا هذه يريدون أن يخلوا إلى أنفسهم، وهم يصرحون بانسلاخهم عن الأمم الإسلامية، وهذا المسلك قد يقوي الرابطة العربية لأنه يحصرها في حدود مأمونة الثغور، ولكنه يسوق الأدب العربي إلى هاوية الخمود.

فإذا استطعنا أن نضمن تفوق أبنائنا بالمدارس الأجنبية في اللغة العربية فقد نُكوِّن منهم جبهة أدبية تُعيد للأدب العربي مجدهُ يوم كان من الآداب العالمية، ويوم كان في لغتنا أدباء من الفرس والروم والهنود والأسبان.

وهناك جانب لم يلتفت أحدٌ إليه، وهو الحالة الصحية لأبنائنا بتلك المدارس، فهم في الأغلب من أبناء المياسير، وعلى وجوههم نضرة النعيم والعافية.

والأدب العربي سيقوى ساعدُه حين تُسنده سواعد أولئك الشبان الأصحاء.

وما رأيت أولئك الشبان إلا تذكرتُ الحديث الشريف «لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خيرٌ لك من حمر النعم» فنقلُ شابٍ واحد من أولئك الأصحاء إلى ميدان الأدب العربي قد يحوله إلى رياض وبساتين.

وأقول بصراحة: إن الأدب العربي قد شبع من أخيلة الضعفاء والمهازيل من الذين يأكلون الفول ويشربون الماء.

والأدب العربي ينتظر طلائع من أصحاب الأريستوقراطية الفكرية والمعاشية.

الأدب العربي ينتظر كتابا وشعراء ومؤلفين ينهضون به نهضة الأمراء لا نهضة البؤساء. ولستُ بذلك أتجنى على الفقراء من أصحاب المواهب، وإنما أقول: إن الأغنياء يعانون من المشكلات والمعضلات أضعاف ما يعاني الفقراء، وهم لذلك أقدر على تصوير المآسي الإنسانية، وأبصرُ بتقلبات النوازع والأهواء والميول.

وقد عرفتُ حافظ إبراهيم وأحمد شوقي معرفة شخصية وعرفتُ أسرارهما عددا من السنين، وصحّ عندي بعد الدرس أن أحمد شوقي أقلُّ ذكاءً من حافظ إبراهيم، ولكن اصطدام شوقي بهموم السياسة وهموم المعاش حوَّله إلى عبقرية ترى بالوهم ما لا تراه العيون.

والأديب الفقير تغلق أمامه أبواب كثيرة من فهم المجتمع، لأنه لا يرى غير ألوان قاتمة من العيش، أما الأديب الغني فيحسُّ فرح الحياة وحزن الحياة، ويصل إلى دقائق لا يصل إليها الأدباء الفقراء.

الشبان الأغنياء سيكون إليهم الأمر في الأيام المقبلات وإن كثر التهويل بسيطرة الديمقراطية، فليست الغنيمة في أن يكسب الأدب العربي

شابا فقيرا ضعضعه الجوع، وإنما الغنيمة في أن يكسب الأدب العربي شابا غنيا يدرك قيمة الأناقة في الفكر كما يدرك قيمة الأناقة في الثياب.

وأقول مرة ثانية: إني لا أتجنى على الفقراء من أصحاب المواهب، فلله حكمةٌ في رفع الفقير الموهوب، وإنما أنتظر أن ينتصر الأدب بالأدباء الأغنياء، كما انتصر الإسلام بالمؤمنين الأغنياء.

وإنما ألح في شرح هذا المعنى لأني أرى الأدب العربي يقصر تقصيرا ظاهرا في وصف الحياة الاجتماعية، الحياة الشاملة التي تنتظم ألوان البؤس والنعيم من جميع الصنوف، فما عندنا اليوم من رسائل وأشعار وأقاصيص يدور في الأغلب حول جانب واحد من جوانب المجتمع، وهو مجتمعٌ تعددت ألوانه وعددت واشتبكت، وهو ينتظر أدباء يتذوقون طُعومهُ المختلفات ليعرضوه للقارئين في تهاويل مختلفات.

وإن صح شيء مما أرجوه فقد نبعث دولة الأدب من جديد، وهل يرتاب عاقلٌ في أن الأدب العربي لم يزدهر إلا حين قدر على تصوير ألوان الحضارة في العصر العباسي؟

إن المزية الصحيحة للأدباء الذين سبقونا بالتفوق هي اتصالهم بالآداب الأجنبية، وقُدرتهم على التجول في أقطار المشرق والمغرب. وشبابنا الأغنياء سيؤدون هذا الواجب حين يصبحون من أدباء اللغة العربية.

وهل كُتب على لغتنا في العصر الحاضر أن لا يكون فيها أدباء يقدرون على الاتصال بمصادر الثقافة في الشرق والغرب كما كان ذلك من حظها في الأعصر الماضية؟

إن الأديب هو أحوج الرجال إلى اعتلاج العواطف والأفكار والأحاسيس، ولا يتم له ذلك إلا إذا استطاع معاشرة الناس من جميع الأجناس.

وأنا أنتظر أن أجدِ هذا الجوهر النفيس بين أبنائنا بالمدارس الأجنبية، لأنهم أغنياء ولأنهم يجمعون بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية.

فهل نصل في تثقيفهم إلى ما نريد؟

***

العائق الوحيد هو الطريقة التي ندرِّس بها اللغة العربية.

وقد عرفت بالتجربة أن تلاميذ المدارس الأجنبية يرون أساتذتهم في اللغة العربية من الغرباء في بيداء الحياة، وكان الأمر كذلك لأنهم يرون في الأساتذة الأجانب شمائل لا يرونها في الأساتذة الوطنيين، فالأستاذ الأجنبي رجل يتصل مباشرة بالحياة الاجتماعية، وهو يحدث تلاميذه بما يفهمون، لأنه يعيش كما يعيشون، ولذلك شواهد فصلتُها في كتاب «ذكريات باريس» وكتاب «البدائع» فلا أعود إليها الآن.

واتصال الأساتذة الأجانب بالحياة الاجتماعية يعطيهم فرصة الابتكار في موضوعات الإنشاء، وفي المحادثات الشفوية، ويجعل ظلهم خفيفا حين يجاورون التلاميذ.

والأستاذ الأجنبي يرى من حقه، بل من واجبه، أن يشارك التلاميذ في ميادين النشاط الاجتماعي، وتدفعه الحماسة إلى دعوتهم لمشاهدة ما في مصر من متاحف وحُصون.

أما الأستاذ المصري -ولا سيما أستاذ اللغة العربية- فهو شخص «ملخوم» يرى الحركة تنافي الوقار، ويرى الابتسام من أخلاق السفهاء!!

وقد رأيت منهم أستاذا يفتخر بأنه لم يدخل دور السينما مرة واحدة، فهو خليفة الشيخ خليل، وهو رجلٌ من أئمة المالكية كنتُ سمعت أنه افتخر في بعض كتبه بأنه لم ير النيل، وإنما قضى حياته كلها فوق حصير الأزهر الشريف!!

***

ماذا أصنع في توجيه هؤلاء المدرسين لأحولهم إلى قلوب تفرح بالحياة لتغرس في نفوس التلاميذ حُبّ الحياة؟

ماذا أصنع وأنا أول مفتش من الجامعة المصرية وآرائي قد تجد من يسيء التأويل؟ رأيت أن أسأل التلاميذ من وقت إلى وقت عما يقرءون من المؤلفات الجديدة وما يشاهدون من الأفلام، ورأيت أن أعرف الفروق بين صلاتهم بالحركة الفكرية في الغرب وصلاتهم بالحركة الفكرية في الشرق، فهالني أن أعرف أنهم يعرفون من الغرب كل شيء، ويجهلون من الشرق كل شيء.

هم يعرفون الغرب لأن أساتذتهم في اللغات الأجنبية أحياء، ويجهلون الشرق لأن أساتذتهم في اللغة العربية أموات!

وكيف لا يموت من يبخل على نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش؟!

لقد حدثت تلاميذ بعض المدارس بأني سآخذ عناوينهم من إدارة المدرسة لأزورهم في بيوتهم على حين غفلة عساني أعرف كيف يُكوِّنون مكتباتهم الخصوصية.

مع أني واثق بأن أكثر أساتذة اللغة العربية ليس في بيوتهم مكتبات.

أليس منهم فلان الذي يعتقد أن كتاب «النثر الفني» من تأليف الجاحظ؟

أليس منهم فلان الذي يظن أن «حديث عيسى بن هشام» من تأليف بديع الزمان؟ لم يبق بد من توجيه أساتذة اللغة العربية إلى فهم العصر الحديث ليستطيعوا الوقوف على أقدامهم بجانب الأساتذة الأوروبيين.

ولكن هناك ما هو أوجب من ذلك.

هناك تغيير الطريقة التي تُدرَّس بها اللغة العربية في المدارس الأجنبية.

ولكن كيف أغير طريقة نزلت من قلوب الأساتذة منزلة التقديس؟

كيف أغير تلك الطريقة وحولي أرصادٌ وعُيون؟

إن كلمة واحدةً من فلان وفلان قد تقصيني عن التفتيش بحجة أني أخاطب المدرسين بما لا يفهمون.

ولكن الله قدر ولطف:

فالرجل الذي أقدم إليه التقارير هو الأستاذ محمد رخا بك وهو رجلٌ مُشرق العقل إلى أبعد الحدود.

وقد حدثته بما تساميتُ إليه في إصلاح الطرق القديمة لتدريس اللغة العربية.

وأنا أحدث هذا الرجل عن كل شيء وللتقارير التي أقدمها إليه صوان خاص، والمفهوم بيني وبينه أن مصر لها في أعناقنا ديون، وأن الصدق في تأدية الواجب هو أشرف ما يتحلى به الرجال.

وقد دخلت عليه منذ يومين فدارت بيننا المحادثة الآتية وهي نموذج لما نفترع من فنون الأحاديث:

ابتدأ فسألني عن الليسيه الفرنسية المصرية بمصر الجديدة، فقلت: إن مديرها هو المسيو دي كومنين، أعظم أصدقائي في دنياي، فاستطرد وقال: وما رأيك في ذلك المعهد بعد أن زرته مرتين؟ فقلت: إن الغاية نبيلة ولكن تحقيقها صعب، لأن هذا الرجل يريد أن يصل تلاميذه إلى البكالوريا المصرية والبكالوريا الفرنسية في وقت واحد، وهذه الغاية مع صعوبتها ليست من المستحيلات.

ثم انتقلنا بسرعة إلى الأصول التي يجب أن يراعيها أساتذة اللغة العربية في المدارس الأجنبية، فقلت: إن الخطر كل الخطر أن يفهم تلاميذ تلك المدارس أن عندنا لغتين: الفصيحة والعامية، فهذا الفهم الخاطئ يُشعر التلاميذ بأن اللغة الفصيحة لغةٌ ميتة وأن مكانها يشبه مكان اللاتينية بالنسبة إلى الفرنسية والإيطالية.

وهنا يحسن أن نسجل ما اتفقنا عليه في ذلك الحوار الطريف:

اتفقنا على أن التلميذ إذا كتب «محطة باب الحديد» فليس من واجب المدرس أن يشطب كلمة «محطة» ويضع مكانها كلمة «محط» بحجة أن هذا هو اللفظ المختار في كتب المطالعة المدرسية.

وإذا كتب التلميذ «بائع متجول» فليس من حق المصحح أن يشطب كلمة «متجول» ويضع مكانها كلمة «جائل».

والتلاميذ جميعا يقولون «قُط» بضم القاف كما يقع على ألسنة الناس في أكثر البلاد العربية، فليس من الحتم أن نصحح هذه الكلمة كل يوم وأن ننص على أنها بالكسر: لأن سيرورتها مضمومة تشهد بأن الضم لغة من اللغات، وإن لم تنص المعاجم على ذلك.

وإذا قال التلميذ «فُرشة» فليس من الواجب أن تفرض عليه أن يقول «فرجون» لأن الفرشة ذاتها مخففة من الفرجون.

وإذا قال التلميذ: أجفف وجهي «بالفوطة» فلا تفرض عليه أن يقول «القطيلة» لأن الكلمة الأخيرة مهجورة ومنسية وثقيلة، ولا كذلك الكلمة الأولى فهي مأنوسة ومألوفة لجميع الناس.

وإذا قال التلميذ: جلست على «السفرة» فلا تحتم عليه أن يقول «المائدة» لأن السفرة كلمة فصيحة وإن كان العرف نقلها من وضع إلى وضع.

وإذا قال التلميذ «الليالي القمراء» فلا تلزمه بأن يقول «الليالي القُمر» لأن الكتاب في العصر الحديث تسامحوا في هذه القضية، ولأن أسئلة الامتحان بوزارة المعارف جاء فيها مرة كلمة «الليالي القمراء» ولأن للشيخ النجار كتابا اسمه «الأيام الحمراء» ولأننا نستثقل عبارة «الحدائق الغن» ونستخف عبارة «الحدائق الغناء».

إذا قال التلميذ «خطوة» بالفتح فلا توجب عليه أن ينطقها بالضم، لأن الفتح لُغية وهو اليوم أسهل وأفصح.

وإذا سكن التلميذ بعض أواخر الكلمات فلا تفرض عليه أن يراعي التحريك في كل وقت، إلا إذا كان يهمك أن تختبره في الإعراب لأن من المستبعد أن يكون العرب التزموا الإعراب في جميع المواطن، وهم قد نصوا على أنه يجوز نصب الفاعل ورفع المفعول عند أمن اللبس، ومعنى ذلك أن الإعراب لا يُطلب إلا لتحديد المعاني.

وأغلبُ الظن أن العرب لم يلتزموا الإعراب إلا في موطنين اثنين: الشعر والقرآن.

وإنما التزموا الإعراب في الشعر لمراعاة الوزن، والتزموه في القرآن لأن القرآن نظم نظما غنائيا فهو في أغلب أحواله كلام موزون رُوعي في وزنه أن يصلح للترنم والترتيل.

واتفقنا على أن اللغة العربية ليست بدعا بين اللغات، فالتعبير بها يختلف باختلاف أقدار المخاطبين؛ والمدرس الحق هو الذي يفرق بين ما يعبر به وهو يلقي درسا في مدرسة أولية، وما يعبر به وهو يلقي درسا في مدرسة ثانوية؛ والمدرس الغافل هو الذي يتكلم بطريقة واحدة في جميع الفصول.

واتفقنا على أن أساليب التعلم لا يجب أن تكون واحدة في جميع المدارس، وإنما يجب أن نراعي مقتضيات الأحوال فنسلك في المدارس الأجنبية غير ما نسلك في المدارس المصرية.

وأصول التربية نفسها توجب ذلك، إنها توجب أن تُخاطب كل تلميذ بأسلوب خاص بعد أن تدرس نفسه حق الدرس، لأن الناس يختلفون في العقول كما يختلفون في الوجوه، وهذا لا يمنع من أن تكون هناك سياسة عامة يعامل بها جميع التلاميذ.

واتفقنا على أن مدرس اللغة العربية يحق له أن يكون أقرب الأساتذة إلى قلوب الطلاب، لأن عنده فرصا لا تتاح لسواه، إذ كان يقدر بلباقته أن يجد في دروس المطالعة والمحفوظات والأدب مجالا لمحادثة الطلبة في معان كثيرة تتصل بالعقل والقلب والوجدان.

ومدرس اللغة العربية يستطيع -إذا كان من أصحاب المواهب- أن يضع في صدور تلاميذه بذور الشوق إلى المشاركة الجدية في الحياة الأدبية والفنية والاجتماعية، وفي مقدوره -إن أخلص لواجبه- أن يدفع تلاميذه دفعا إلى رحاب الواجب في خدمة الوطن الغالي. وهو يستطيع أن يخلق منه رجالا يفرقون بين المعاني الوطنية والمعاني الإنسانية، بحيث يصبحون -فيما بعدُ- من دعائم الحياة القومية.

مدرس اللغة العربية مسئول قبل سواه عن خلق الروح المعنوي في المدارس لأنه يملك التعبير الجميل، ولأنه ارتاض على سياسة القول، ولأن لديه فرصا كثيرة يستطيع بها توجيه التلاميذ إلى شريف الأغراض وكريم المعاني.

***

ثم انتقلنا إلى موضوع شائك هو تحديد الفروق بين المدارس المصرية والمدارس الأجنبية. والظاهر أني أحب المدارس الأجنبية حبا يجعل ذنوبها حسنات، وقد فصلت رأيي في حضرة رخا بك وارتضاه، فما هو ذلك الرأي؟

من بين أبنائي ثلاثة يتعلمون بمعهد الليسيه في مصر الجديدة. وهؤلاء الأبناء الثلاثة يختلفون عن أخيهم الأكبر الذي يتعلم في مدرسة مصرية: فأخوهم الأكبر يأخذ مصروفه على أسلوب رتيب لا يتغير ولا يتبدل، أما

أولئك فيزعجون المنزل بالمطالب المتنوعة في كل يوم، وقد قاست أمهم ما قاست حين كنت بالعراق، فلما اختبرتُ الأمر بنفسي ضقتُ به ذرعا لأول وهلة، ثم تبينت أن تلك المطالب المتنوعة هي شواهد الحيوية في الحياة المدرسية، فالتلميذ لا يجد الفرصة ليهدأ ويسكن، وإنما يشعر بالمسئولية تتجدد أمامه في كل لحظة: فهو اليوم في حاجة إلى كتاب، وكان بالأمس في حاجة إلى كراس، وهو غدا في حاجة إلى ثوب جديد للحفلات، وهو بعد شهر سيقدم إلى المدرسة دينارا للاشتراك في رحلة مدرسية، إلى آخر ما لا آخر له من موجبات اليقظة في المدارس الأجنبية.

أقول: إن هذه المطالب راعتني لأول وهلة، ثم رأيت أن هؤلاء الأبناء حالهم أحسن من حال أبيهم، الأب المسكين الذي يخترق شوارع القاهرة في كل يوم ولا يراها، لأنه لا يمتطي ترامًا أو سيارة إلا وهو مشغول بمطالعة الجرائد والمجلات أو مراجعة بعض الأوراق.

أترونني على حق في استحسان هذا المذهب في التثقيف؟

إن كنت مخطئا فاعذروني لأن اتصالي بالأجانب حبب إليّ الحركة وزهدني في السكون!

هل تصدقون أنني لا أستريح إلى الدعوة التي تكررها الجرائد في الصبح والظهر والمساء، الدعوة إلى الوفاء والاتحاد والائتلاف؟

هل تصدقون أني أعتقد أننا نختلف أقل مما يجب، وأنه ينبغي أن لا نعرف غير النضال والصيال؟

هل تصدقون أن التجارب علمتني أن الراحة نذير الموت؟

هل تصدقون أني نفرت من منزل جميل في باريس لأن أصحابه كتبوا على بابه عبارة تشير إلى أنه معروف بالهدوء؟

هل تصدقون أني لم أسترح في بغداد إلا حين اهتديت إلى منزل تحيط به الضوضاء؟ الحق أن مزاجي أفسدته المدنية الحديثة فسادا لا يُرجى له صلاح.

ولكن هذه هي المدنية، وهذا هو عقل العصر الحديث، وأنتم تطلبون أن نروضكم على التخلق بأخلاق العصر الحديث.

***

ثم ماذا؟ ثم ماذا؟

ثم انتقلنا إلى تعليم البنات فعرفنا -بعد الأخذ والرد- أن البنت في المدرسة المصرية تقتل قتلا بالدروس، فلا تستطيع أن تكون بهجة البيت في المساء.

والواقع أننا كنا أخطأنا في تقدير مناهج التعليم بمدارس البنات: فقد كانت البكالوريا واحدة للبنات والبنين، مع أن المزاج يختلف بين النوعين أشد الاختلاف.

وقد لوحظ أن البنات في المدارس الأجنبية يعاملن معاملة تقوم على أساس العطف والرفق، والمفهوم عند الأجانب أن البنت إنما تتعلم لتصلح تمام الصلاحية لتكون ربة بيت.

ولوحظ أيضا أن مديرات المدارس الأجنبية يحاولن أن يعرفن كيف تعيش العائلات التي تجيء منها التلميذات ليستطعن تلوين الحياة المدرسية بألوان مختلفات.

وهذا شيء قد لا تعرفه المدارس المصرية: لأن الصلات قد تكون مقطوعة بين المدرسة والبيت. والظاهر أني لا أزال أستجيد الوصف الذي أطلقته على مدارسنا منذ أكثر من عشر سنين حين سميتها «مجازر بشرية» فنظام هذه المدارس لا يتيح فرصة للتعمق، وإنما يُلهي الطلبة بالقشور لكثرة ما يعرض عليهم من العلوم والفنون.

وسيجيء يوم يعرف الناس فيه أن أسلافنا كانوا أبصر منا بالمذاهب التعليمية، لأنهم كانوا يعرضون على الطالب علوما قليلة ثم يفرضون عليه أن يتعمق.

ولو شئت لقلت: إن المدارس الفرنسية تُريح التلاميذ من الدروس يومين كاملين، ومع ذلك لم يقل أحد بأن الفرنسيين تخلفوا في الميادين العلمية.

ولو شئت لقلت: إن الامتحانات عندنا لا تزال جائرة الميزان، فليس من المعقول أن يكون تلاميذنا من الضعف والجهل بالمنزلة التي توجب أن لا ينجح من كل مائة غير عشرين أو ثلاثين.

وهناك مجموعة يعرفها جميع المعلمين، وهي مجموعة الأسئلة الخاصة بالامتحانات العمومية، ونظرة واحدة إلى تلك المجموعة تشعر المنصف بأن الممتحنين لا يرون التيسير من الأمور ذوات البال، والأساتذة أنفسهم يحتاجون إلى تأمل يسير حين ينظرون إلى الأسئلة

المسطورة في تلك المجموعة، فكيف يصنع التلاميذ وبينهم وبين أساتذتهم من الفروق ما تعرفون؟

ولو شئت لقلت: إن أسئلة الامتحانات العمومية يضعها رجال مكدودون من بين المفتشين والمراقبين، والعقل يفرض أن يتفرغ لوضعها جماعة من الأساتذة ينقطعون إليها أسبوعا أو أسبوعين حتى تسلم من العنت والإرهاق.

أحب أن يشعر التلميذ المتوسط بأن من حقه أن ينجح. أحب أن يشعر التلميذ الضعيف بأنه قد ينجح إذا ضاعف من نشاطه وبذل ما يملك من العافية في الاستعداد للامتحان.

ولكن هذه آمال لا تتحقق إلا إذا غير الممتحنون ما بأنفسهم فعرفوا أن الشهرة بالشدة والعنف مطلبٌ سخيف.

ثم ماذا؟

ثم تحدثنا عن الصلة بين المدرسة والبيت، واتفقنا على أن الواقع أننا نتكلم ولا نفعل. وأين المدرس الذي يجد من الوقت ما يزور فيه بيوت التلاميذ؟

وأين الناظر الذي يجد في جيبه ما يسعفه بأن يقيم للتلاميذ أو آبائهم حفلة أو حفلتين؟ لقد حاولت ذلك بنفسي ثم عجزت، لأني كنت أخرج من المدرسة مكدودا لا أصلح لشيء.

ولو شئت لصرحت بأن المدرسين يعجزون عن متابعة النشاط المدرسي، لأن المناهج لا تقيم له أي ميزان، وهو سُخرة يقوم بها المدرسون بلا جزاء.

أما بعد فهذه صورة لساعة لطيفة قضيتها مع الأستاذ رخا بك، فإن أعجبته هذه الصورة فذلك ما أرجوه وإن رآني أذعت ما لا ينبغي أن يذاع فليعرف أن هذا مذهبي، وعليه أن يعقل لسانه حين يراني.

يا مصر.

إنك تستعدين لأخطار عظيمة في بناء الجيل الجديد، فاعرفي ما تأخذين وما تدعين، واحذري أن يعتقد أبناؤك الأوفياء أنهم لا يلقون منك حسن الجزاء.

وأنتم أيها المدرسون.

ثقوا بأن واجبكم الأول هو التغلب على المصاعب، المصاعب التي تواجهكم في الحياة المعاشية والحياة المدرسية، واعرفوا أن الإخلاص للواجب هو الكفيل بأن يرفع عن كواهلكم أثقال العيش وأعباء التعليم.

إن التدريس مهنة لا يعرف فيها الراحة إلا من يتعب نفسه في تأدية الواجب، ولا يشقى في هذه المهنة إلا من يؤديها بتهاون واستخفاف.

إن العناية التي تبذلونها في إلقاء الدروس تُعدي تلاميذكم بالجد والنشاط، وتروضهم على النظام، وتغريهم بحب التفهم لما يسمعون وما يقرءون.

وأنتم القدوة الصحيحة للتلاميذ، فاحذروا أن تعدوهم بالضجر واليأس، وتذكروا دائما أن المدرس المنشرح الصدر، المبتهج النفس، هو وحده الذي يقدر على جعل المدرسة أحب إلى التلميذ من كل مكان.

إن في الدنيا متاعب كثيرة تنتظر رجال الغد من تلاميذكم فأعطوهم من ذخائر الأمل والبهجة ما يدفعون به متاعب الحياة في الأيام المقبلات. والله بالتوفيق كفيل.

وقع حادث لم يخطر في البال، وستكون له عقابيل.

لقيني الأستاذ عبد الحليم الغمراوي بشارع الفلكي مصادفةً فقال:

- كيف نسيت جريدة المصري، يا دكتور؟

- ما نسيتُها، وقد كانت أول جريدة زرتُها بعد الرجوع من بغداد.

- هل تستطيع أن تتفضل بمقالة عن حديث الصيام؟ أم تخاف غضب الحكومة؟

- أنا لا أخافُ الحكومة يا جبان، وهل تظنُّ أن الحكومة تحرم على رجل مثلي أن ينشر ما يشاء، حيث يشاء؟

***

ولكن ما الذي أكتب في حديث الصيام بجريدة المصري؟

لقد كنتُ صاحب الفضل في هدم التقليد السخيف الذي يوجب أن يكتُب حديث الصيام رجلٌ واحد، وفي موضوعات متصلة بالدين.

أنا الذي أرحتُ الجمهور من استبداد أغبياء الفقهاء بالصحف اليومية ورغبتهم المبتذلة في أن يشغلوا الصائمين كل يوم بأحاديث الفضائل والرذائل والمباحات والمحظورات.

وقد مات الشيخ التفتازاني وهو يحقد علي أبشع الحقد لأني أزحت كابوس قلمه عن صدر جريدة الأهرام في شهر رمضان.

***

ماذا أكتب؟ ماذا أكتب؟

تمثلت لي العزلة التي أعانيها بضياع حظي من ليلى المريضة في الزمالك وليلى المريضة في العراق، فكتبت أقول:

إلى متى الصوم يا قلبي؟

قلبي!

كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ فما عدتُ أسمع خفوقك في صباح ولا مساء!

صام الناس منذ أيام فتذكرتُ صيامك.

إنهم يصومون من الفجر إلى الغروب ثم يفطرون، وأنت يا قلبي تصوم ليلك ونهارك؛ وأخشى أن تصوم دهرك.

وسينقضي صيام الناس بعد أسابيع حين يجيء العيد، وتبقى وحدك بلا عيد.

أتسمع يا قلبي؟

لقد كان شهر الصوم فرصة لمن تعودوا في مثل هذا الموسم أن يقيموا مناحةً على الآداب وملطمةً على الأخلاق.

وصومك يا قلبي هو الجدير بأن أذرف عليه غاليات المدامع.

ولو كان لصومك نهاية لتعزيتُ وتأسيت، ولكني أعرف أن بلاءك بالصوم سيطول، ويؤذيني أن أعترف بأني لا أملك رجعك إلى ملاعب هواك.

وكيف أملك ذلك وقد شاركتك في صيامك؟

أما رأيت يا قلبي كيف تمضي الليالي والأيام وأنا مبلبل الخواطر لا أعرف غير بياض القرطاس وسواد المداد؟

قلبي!

إن بعض الناس ينافقون فيفطرون في السر، ويصومون في العلانية، وقد استوى سرك وجهرك فألفت الحرمان من أطايب الحسن وغرائب الجمال.

كنت أنتظر أن أصير شاعرا على حسابك، فأين أنت يا قلبي؟

كنت أطير إلى دنيا المجد والحب بجناحيك، فماذا صنع الدهر بجناحيك؟

كانت القاهرة لا تسعني في ليالي رمضان، وكنت أملأ المحافل والأندية بالجدل والضجيج، وأنا اليوم لا أعرف غير القرار في بيتي لأداوي جراحك يا أشرف جريح، فمتى يعود إليك نشاطك لأصاول بك الدنيا والناس؟

يعز عليّ يا قلبي أن أصبح بالرغم مني حكيما من الحكماء.

اعترف، أيها القلب الصائم، بأنك تخذل نصيرك وأخاك.

اعترف، أيها القلب الصائم، بديوني عليك.

ألم أخرج على تقاليد المجتمع مليون مرة ومرة من أجلك؟

ألم أضيع ألوف المنافع في سبيلك؟

فما الذي يضيرك يا قلبي لو تركت صومك يوما أو بعض يوم لأواجه بك الحياة لحظة أو لحظتين؟

لقد شمت الشامتون بالشاعر الذي يعيش في مصر الجديدة ولا يرى مصر الجديدة، ويخترق شوارع القاهرة ولا يحس جمال القاهرة، ويدخل عليه رمضان فلا يهتاج لزيارة صديق أو استقبال حبيب.

كنت أرى الدنيا بك يا قلبي، فأين أنت يا قلبي؟

أين أنت؟ حدثني أين أنت؟ فقد ذهب صيامك بهيامي، وقضى على عنفواني.

قلبي!

لقد تحطمت معاول الأعداء وعجزوا عن هدم بنياني، فكيف تهدمني أنت؟

أحب أن أعرف كيف شاءت المقادير أن لا أرى المتاعب والمضجرات إلا على يدي من أحب؟

لقد بدأتُ أبغضك يا قلبي، ولكن يعز عليّ أن تعيش بلا صديق، فإن بقيتُ بجانبك أعطف عليك وأواسيك فاعرف أن ذلك بقيةٌ من كرم الوفاء.

قلبي!

إلى متى الصوم يا قلبي؟

إن الناس يصومون ليلقوا من الله حسن الجزاء، وصيامك يا قلبي من أشنع الذنوب، فاعترف بذنبك يا غافل واجرح صيامك بنظرة أو نظرتين قبل أن تطويك الأيام فلا يُنصب لخفوقك ميزان.

وموعدنا إن شئت طغيان الفتون حيث تعرف وأعرف .. هل فهمت؟

أما أنا فسأسوقك إلى حيث أريد، وإن أبيت وتمردت. وإلى اللقاء في مساء الخميس.

***

وبعد يومين من ظهور هذا المقال مررتُ على مكتب تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف فنبهني الأستاذ محمد بيلي الفار إلى أن سعادة العشماوي بك سأل عني، فطربتُ وظننت أنه سيبشرني بأن حالتي قد سُويت بوزارة المعارف وأن مرتبي ارتفع بحيث أستطيع الإنفاق بسخاء على مرضاي من الملاح!

وما كدت أدخل على سعادة العشماوي بك حتى نهض واقفا، فكيف خرج هذا الرجل على «التبالُه» الذي عُرف به حين يستقبل الزائرين؟

كيف يقف هذا الرجل لاستقبالي وبيني وبين مكتبه خطوات طوال؟

- دكتور!

- مولاي!

- لقد أزعجتني مقالتك في جريدة المصري.

- أو قرأتها؟

- أنا أقرأ كل ما تكتب: لأنك من ذخائرنا الأدبية.

- ومن أجل هذه المقالة تسأل عني؟

- أنا أسأل عن صحتك الغالية.

- أجزل الله ثوابك، يا سعادة الوكيل!

- اسمع، يا دكتور، نحن في السنة الماضية حشدنا إلى بغداد مؤتمرا طبيا عربيا لمداواة ليلى المريضة في العراق، فما رأيك إذا عقدنا المؤتمر الطبي العربي في هذه السنة بالقاهرة لمداواة طبيب ليلى.

- دوائي عند ليلاي، يا سعادة الوكيل، لا عند الأطباء.

- إنك رفضت السفر إلى العراق وفيه شفاؤك.

- أنا رفضتُ السفر إلى العراق لأني:

أخافُ العيونَ السودَ فليرحم الهوى ... فجيعةَ أهلي يومَ أقضي وأبنائي

- نعدّل الغرض بعض التعديل.

- وكيف؟

- ندعو المؤتمر الطبي للانعقاد بالقاهرة لمواساة طبيب ليلى.

- لا بأس.

وما هي إلا لحظة حتى كان السيد علي مراد ينسخ بالمِكتاب خطاب العشماوي بك إلى الدكتور علي باشا إبراهيم يوصيه بعقد المؤتمر الطبي الحادي عشر بالقاهرة لمواساة طبيب ليلى هداه الله وشفى ليلاه!.

***

أمن أجل مواساتي ينعقد المؤتمر الطبي في القاهرة؟

هو ذلك، أو هذا هو، كما يعبر أهل بغداد.

***

بفضلك يا ليلى صرتُ شخصيةً عالمية.

بفضلك يا ليلى رفعني الحب درجات.

بفضلك يا ليلى صرتُ في وطني من الأطفال المدللين.

أحبك يا ليلى، فاذكريني بالشعر والدمع يوم أموت.

***

سينعقد المؤتمر الطبي في القاهرة لمواساتي.

الله أكبر، ولله الحمد!

وماذا يصنع الحاسدون والحاقدون والأعداء؟

obeikandl.com

أنا أعرف العواقب، ستغلف مؤلفاتي من جلودهم وجلود أبنائهم وأحفادهم وأسباطهم بعد حين وسوف يعلمون.

الفناء لأعداء الآداب والفنون.

أما طبيب ليلى فله الخلود.

أرباه أنقذني فأنت رميتني بقلبٍ على عهد الأحباء بكّاءِ
أرباه لا تفعل فإني أرى الهوى على وَقدِه بالقلب أنفاسَ رَوحاءِ
تباركتَ ما الجناتُ من دونِ لوعةٍ سِوَى بقعةٍ في غابة الموت جرداءِ

***

أقبلت بكل نشاطي على الكفاح في خدمة اللغة العربية بالمدارس الأجنبية، ولم يفتني أن أشاغب الأساتذة الأفاضل علي الجارم وأحمد أمين وطه حسين في مقالات نشرتها بمجلة الرسالة ومجلة الرابطة العربية، ثم وثبت فنشرت مقالا في جريدة الأهرام أشاغب به من يستكبرون على تعليم اللغة العربية من أعضاء البعثات.

وكنت أريد بهذا الكفاح المختلف الألوان أن أصرف قلبي عن هوى الليليات، ولا سيما بعد ظهور «كتاب التصوف الإسلامي» وهو كتاب يرشحني لمشيخة الأزهر الشريف، إن احتاج الأزهر إلى شيخ يفهم أسرار الفلسفة الإسلامية.

ولكن هذا التعقل لم يدم طويلا، فقد نشرتُ فصلين بمجلة الرسالة عن بعض غرامياتي في باريس، وبهذين الفصلين ساءت سمعتي من جديد في بيئات المنافقين من عباد الله الصالحين!.

اشتركتُ في المؤتمر الطبي العربي الذي سيعقد في القاهرة لمواساة طبيب ليلى. وأنا أنتظر اليوم الذي آنس فيه بالوجوه الصباح، والعقول الصحاح.

***

سيتغير كل شيء يوم ينعقد المؤتمر الطبي بالقاهرة.

وسيكون لهذا المؤتمر تأثيرٌ في القاهرة كما أثر أشد التأثير في بغداد.

ستظفر القاهرة بحيوية جديدة تزيدها فتونا إلى فُتون.

ستعود القاهرة إلى الأفراح، والليالي الملاح.

فمتى يجيء شهر ذي الحجة لتلبس القاهرة من الحلل بعض ما لبست بغداد؟

متى؟ متى؟ فقد اشترك في المؤتمر نحو ستمائة طبيب، وهذا الجمهور خليق بأن ينقل القاهرة من حال إلى أحوال.

لم يكن يهمني من أعضاء المؤتمر غير أطباء العراق، وإن كنت شديد الحرص على التشرف برؤية من يفدون من سورية وفلسطين ولُبنان واليمن والحجاز وتونس ومراكش والجزائر ومن إليهم من أطباء العرب والمسلمين.

ورأيت في الجرائد العراقية أن العراق سيوفد أربعين طبيبا للاشتراك في مواساة طبيب ليلى، شفاه الله وهداه!

ورأيت في تلك الجرائد أن العراق سيوفد مع الأطباء عددا من رجال وزارة المعارف العراقية أسوة بما صنعت مصر في المؤتمر الذي عُقد في بغداد: فقد حضره عددٌ من رجال وزارة المعارف المصرية.

فقلت في نفسي: هذه فرصة أرى فيها الراوي والجمالي والألوسي.

***

- ألو.

- ألو.

- مين يتكلم.

- طبيب ليلى.

- وأنا مين؟

- ما أنت «مين» وإنما أنت «مِنُو»!

- عرفتَني؟

- نعم، عرفتك.

- وأنا مين؟

- أنت مِنُو؟

- ومن منُو؟

- أحد أقارب ليلى.

obeikandl.com

- أنا شلاش.

- أهلا وسهلا ومرحبا بأشبال الفرات.

وبعد لحظة عرفت أن أطباء العراق حضر منهم وفدٌ برياسة الدكتور سامي شوكت.

لم يبق شك في أن القاهرة تموج بالوافدين من أطباء العروبة.

لم يبق شك في أن القاهرة لم يبق فيها موضع قدم أو عربة للراجلين والراكبين.

لم يبق شك في أن القاهرة لم يبق في فنادقها أو ملاهيها مكان.

لم يبق شك في أن القاهرة أمست في ازدحام واشتباك.

لم يبق شك في أني سأرى وجوه الضيوف حيثما توجهتُ.

وكيف تخفى وجوه المئات من الرجال والنساء وهم من أقطار مختلفات؟

***

استعددتُ لزيارة القاهرة عساني أؤدي بعض الواجب في تحية أعضاء المؤتمر الطبي ثم فكرت في التحرز من فتنة النساء، فقد كان لي معهن تواريخ سجلتها في صدر هذه المذكرات.

وخطر بالبال أني كنتُ ألقيتُ محاضرة بالجامعة المصرية عن قصة آدم وحواء، وقد قلتُ في تلك المحاضرة: إن قصة آدم وحواء رمزية، والغرض منها تحذير الرجال من فتنة النساء.

وكانت حجتي أن الجنة لم تُخلق بعدُ، ولو أنها كانت خُلقت لاهتدى إليها العلماء الذين عرفوا أسرار ما في الكون من جواذب الكهرباء.

لو أن الجنة كانت خُلِقت وعرفها آدم لدخل عليه من نورها ما ينجيه من طُغيان المرأة وهي مخلوقٌ منسبٌ في الرقاعة والسخف والهذيان.

وقد قال الدكتور طه حسين يومئذ: إني لم أبتكر هذا المعنى، وإن له أصولا في كلام الفلاسفة من القدماء.

وما أعرف من هم الفلاسفة الذين قالوا بذلك، فعدد الفلاسفة يزيد على عدد الهموم والأحزان، ولكني أعرف أن قصة آدم وحواء عبرةٌ على أي حال، فإن كانت حقيقة -وذلك رأي القرآن المجيد- فهي درس يُلقيه رب العزة والجبروت، وإن كانت خيالية -كما أفترض- فهي كذلك درسٌ مفيد.

والمفهوم من قصة آدم أنه عصى ربه لأنه أطاع زوجته، كما يعصي المتفرنجون ربهم لأنهم يطيعون زوجاتهم وهل يقلّ جمال الجنة عن جمال باريس؟

كان آدم نبيا، ثم أضلته امرأة، بشهادة القرآن.

فكيف أنجو من ضلال المرأة، ولستُ من الأنبياء؟

لي مع النساء تواريخ وتواريخ.

وقد انتهيت من تلك التجاريب إلى أن المرأة للرجل عدو مبين.

***

المرأة مخلوق جميل ولكنه سخيف، لأنها تجهل ما فُطِرتْ عليه من الضعف، وهي لا تسيطر ولا تستطيل إلا على كرام الرجال.

والرجل الكريم يراعي عواطف المرأة بفضل ما فُطر عليه من الهُيام بالجمال والرفق بالضعفاء، ولكنها تجهل ذلك، وتظن أنه لا يراعيها إلا بفضل ما تملك من السحر والجاذبية، وفي المرأة سحر وجاذبية وإن كانت شوهاء، لأنها بابٌ إلى الضلال.

المرأة!

المرأة!

غضبةُ الله على جميع بنات حواء!

لن ينقضي عتبي على ربي حين ابتلانا بهذا المخلوق الذي يجمع بين الرفق والعُنف.

المرأة الجميلة قد تؤذي زوجها بلا تهيب.

والمرأة الدميمة قد تستعبد زوجها بلا ترفق.

فلأية حكمةٍ خُلق هذا الجنس «اللطيف»؟

***

آمنت بالله والحب!

خلق هذا الجنس ليستطيع رجل مثلي أن يحاور ليلى وظمياء.

وما قيمة ذلك في حُكم العقل الصحيح.

أحب أن أعرف كيف صيغ الوجود على هذا الأسلوب؟

ومتى نخلص من بلاء هذا الوجود؟

إن لله حكمة عالية حين وعدنا بالجنة، فسنسلم في الجنة من طغيان النساء، إن كان لنا إلى الجنة سبيل!

المرأة تملك أصول الشهوات وهي باب الدمار والخذلان، وما أطاع رجلٌ امرأته إلا ذلَّ وهان.

وأعظم مزية لنبي الإسلام هي دعوته إلى الحذر من النساء.

لا، بل أعظم مزية لنبي الإسلام هي أن يقترن بتسع نساء ثم يسلم مما فُطرت عليه المرأة من احتراف الزور والبهتان.

إن المزية الصحيحة لنبي الإسلام هي أن يقترن بتسع نساء ثم لا يضل، مع أن آدم اقترن بامرأة واحدة فأنزلته من السماء إلى الأرض، وقهرته على أكل الفول بعد أكل التفاح! أعاذنا الله من كيد النساء، فإن كيدهن أعظم من كيد الشياطين!

***

ولكن ما الذي أشكوه من المرأة حتى أصبّ على رأسها هذا السوط؟

ليس لي ما أشكوه من المرأة غير غلوها في الغيرة، فهي تخاف من جميع الهواجس وجميع الظنون، ولا تترك للرجل منفذا واحدا من منافذ الحرية، وهي تود لو استطاعت أن تسجنه في البيت حتى لا تقع عليه العيون.

والمرأة لا تفهم أن الحياة تفرض على الرجل أن يتحول من شأن إلى شئون ليصل إلى فهم المجتمع الذي يُراوحه ويغاديه في سبيل الرزق أو في سبيل المجد.

المرأة لا تطمئن ولا تستريح إلا إذا وثقت بأن زوجها قطعة من الثلج لا تطلع عليها الشمس، المرأة لا يُرضيها إلا أن يكون زوجها ألعوبة تلهو بها كيف تريد، وهي مع ذلك تتمنى أن يكون أقوى الرجال وأعظم الرجال، وكيف يقوى ويعظم وهو في سجن حواء؟

المرأة هي الجحيم الذي نتمرن به على الإقامة في سقر. هي البلاء الذي يصبه الله على رءوس العباد، هي الشقاء المعجل والكربُ الذي يسبق الموت.

والمرأة في جميع أحوالها مصدر فساد، هي التي تفرق بين الابن وأبيه، والأخ وأخيه ولها مداخل إلى الفتنة يعجز عنها إبليس.

ولا يُطيع زوجته إلا الضعفاء من أشباه الرجال.

ومع أن الرجل يعزُّ المرأة بغناه وعافيته فهي تستريب من ظفره بالغنى والعافية، لأنها ترى في ذلك بابا لتطلعه إلى سواها من النساء.

المرأة تحبُّ للرجل كل شيء، على شرط أن تكون هي التي تُعطي وتمنع.

لقد كنتُ صالحا للكفر بالله والرسول، ثم صدتني الآية الكريمة:

«إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم».

فهذه الآية تشهد بأن القرآن نفحة سماوية.

الرجل يتقلب ليله ونهاره في مجاهدة الخصوم والأعداء لينتزع من أيديهم لُقمة يسد بها رمق من في البيت، وهو يرجو أن يجد الراحة حين يدخل البيت، ثم تقهره المرأة حين تلوم على أن يعترف بصدق من يقول:

أطوِّف ما أُطوِّف ثم آوي إلى بيتٍ قَعِيدَته لَكَاع

وما في الأرض عدو إلا وهو خليقٌ بأن يتعامى عن بعض عيوبك، إلا المرأة فهي وحدها العدوّ الذي لا يغفر ولا يصفح.

زادها الله ذلة إلى ذلة، وضعفا إلى ضعف!

ولم يكتف النساء بالسيطرة على الرجال في البيوت، وإنما يُردن السيطرة على الحياة الاجتماعية والسياسية، ويطالبن بحرية الانتخاب والمساواة في الميراث.

وما وقع ذلك إلا لأن الرجال حُرموا فضائلهم الأساسية فهم اليوم يتظرفون ليقال: إنهم متمدنون!

غضبة الله والملائكة على رجال هذا الزمان!

***

ولكن هل يمكن نسيانُ فضل المرأة في حياة العظماء؟

المرأة تؤثر في حياة العظماء بلا جدال، لأنها توقِظ فيهم غريزة المخاتلة والنفاق والرياء، وهي فضائل يعدُّها الغافلون من العيوب.

بفضل المرأة عرفنا كيف نصانع ونجامل ونُراوغ.

بفضل المرأة عرفنا أن صفو الحياة تحيط به شوائب.

بفضل المرأة راضتنا المقادير على الصبر الجميل.

وهل هناك أصبر من الذي يحمل الحية في كمه طول الحياة؟

***

وبلائي في دنياي أعظم بلاء: لأني متزوج وعاشق.

أنا أرى المرأة في البيت وفي خارج البيت، أراها حيثما توجهتُ: لأن الله كتب أن أكون من الأشقياء.

إذا دق التليفون في المنزل سمعته زوجتي، لأن له وصلةً تُسمع من في الطبقة الأولى ومن في الطبقة الثانية، وزوجتي تظن أن جميع المحادثات التليفونية آتية من سعير الوجد في الزمالك وحُلوان، وقد افتضحتُ بهواي في الزمالك وهواي في حُلوان.

وإذا ذهبتُ إلى باريس فهي تظن أني ماضٍ إلى مخادنة مرجريت.

وإذا مضيتُ إلى بغداد فهي تظن أني ماض إلى مغازلة ظمياء.

وإذا تقلبت من مدينة إلى مدينة لتأدية الواجبات الرسمية ظنتني على ميعاد مع حِسان الإسكندرية أو ملاح أسيوط. فمن يُفهم هذه المرأة أني لا أريد غير فهم سرائر النساء: لأقدم إلى الأدب ألوانا من الدراسات النفسية؟

وللمفتونات بأدبي أوهامٌ أبشع وأقبح، فهن يحسبن أني من كبار المخادعين، وينسين أني رجل له أهل وأبناء.

وصاحبة الضحكة الرنانة لا ترحمني: فهي تضحك في التليفون ضحكات أثيمة توقظ الأموات، وقد نبهتها إلى خطر هذا الصنيع فلم تعقل ولم تنزجر، مع أنها من أزهار الدقهلية وطن أم كلثوم.

كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول:

«من لم يتزوجْ مِصرية فليس بمحُصَن».

وأنا تزوجتُ سنتريسية، وعشقتُ منصورية، وهويتُ أسيوطية، وابتُليت بدمياطية، وتُيِّمتُ بُحلوانية، وشقيتُ بإسكندرانية، وأُوذيتُ بجيزاوية، وافتضحتُ بطنطاوية، أفلا أكونُ مُحصنا بعد الغرام بكل هاته الجنيات؟

ماذا تريد مني مصر وقد أذعتُ جمالها الفتَّان في المشرقين والمغربين؟

وماذا يريد مني العراق، وقد صيرتُ ليلى عراقية بعد أن كانت نجدية؟

وماذا تريد مني زوجتي وقد حفظتُ عهدها فزهدت في «الراء الملثوغة» بين الموصل وباريس؟

***

المرأة!

لعنة الله على جميع بنات حواء، وإن كنّ في صباحة ليلى وحلاوة ظمياء وملاحة سُعاد. ومع ذلك سأنتقل من مصر الجديدة إلى القاهرة لأحيي الأطباء الذين تجشموا ما تجشموا لمواساة طبيب ليلى، شفاه الله وهداه!

ولكن لا بد من الاحتراس من فتن النساء، فما أريد أن أصنع في مؤتمر القاهرة ما صنعت في مؤتمر بغداد.

أين أعضاء المؤتمر الطبي؟

أين؟

***

طوفتُ بجميع أرجاء القاهرة فلم أر أثرا للضيوف القادمين من الحجاز واليمن وسورية وفلسطين ولبنان وتونس ومراكش والجزائر والعراق.

فأين ذهب أولئك الضيوف؟

أين ذهبوا؟ أين ذهبوا؟

ابتلعتهم القاهرة فلم يُحس لهم أحدٌ بوجود.

فما هذه القاهرة؟ ما هذه المدينة التي استفحلت واستطالت على جميع مدائن الشرق؟ إن القاهرة أصبحت تضارع أكبر الحواضر الأوربية والأمريكية، وفيها خصائص تفردت بها بين حواضر الشرق وحواضر الغرب، وهي الشاهد على أن اللغة العربية صالحةٌ للسيطرة والاستعلاء.

أليس من مفاخر العروبة أن يكون لها حاضرة مثل القاهرة؟

إنّ من حق جميع العرب والمسلمين أن تنشرح صدورهم حين يتذكرون أن لهم عاصمة تجمع بين الملائكة والشياطين، وتؤلف بين الهدى والضلال.

وما الذي تطلبه القلوب والعقول والعيون ثم لا تجده في القاهرة؟

لقد سمعنا أن الدنيا ستصلح يوما فيعيش فيها الحمل بجانب الذئب، والظبي بجانب الغضنفرة، والحمامة بجانب الثعبان.

وقد تم ذلك أو كاد في القاهرة: فهي اليوم ملتقى الناس من جميع الأجناس.

إن كنت عربيا فلك في القاهرة إخوان، وإن كنت عجميا فلك في القاهرة أمثال، وإن كنت أوربيا أو أمريكيا فلك عِصاباتٌ ترعاك من سكان العالم القديم والعالم الجديد.

في القاهرة جرائد ومجلات بأشهر اللغات، فتقرأ فيها مطبوعات بالفارسية والتركية والأردية والصينية واليابانية والروسية والألمانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية واليونانية.

أما اللغة العربية فلها في القاهرة سلطانٌ لم تظفر بمثله يوم استظلت بأفياء قُرطبة وبغداد. والشاب العربي لا يستطيع أن يقرأ ما تُصدره مطابع القاهرة في كل يوم من كتب وجرائد ومجلات، ومن هنا كان العرب في القاهرة ينقسمون إلى جماهير مختلفات الأذواق: فلحي الأزهر قراء، ولحي الحلمية قراء، ولقهوات شارع عماد الدين وشارع فؤاد قراء، ولسكان الجيزة قراء، ولمصر الجديدة قراء، وللزيتون وحدائق القبة قراء، وللمعادي وحلوان قراء، ولكل حزب من الأحزاب السياسية والدينية جرائد ومجلات، ولكل جماعة ألوان من الأذواق والآراء.

القاهرة تحتاج اليوم إلى رجلين لتأريخ ما فيها من جد ومُجون.

تحتاج القاهرة إلى رجل مثل الجاحظ ليدون ما فيها من المذاهب الأدبية والفلسفية والدينية والاجتماعية.

وتحتاج إلى رجل مثل بديع الزمان يدون ما فيها من أخبار الهزل والمجون وحيل اللصوص. القاهرة اليوم مدينة خطرة جدا: ففيها يشتبك الجد والهزل ويصطرع الهدى والضلال. في القاهرة طوائف من المغفلين، وطوائف من المحنكين، ويكفي أن يكون فيها الأزهر والجامعة المصرية.

في القاهرة أقطاب الملحدين وأقطاب المؤمنين.

في القاهرة خُلفاء الحسن البصري وخُلفاء إبليس.

في القاهرة أتباع القرآن والتوراة والإنجيل.

في القاهرة أبناء الدنيا وأبناء الآخرة، والموعودون بالنعيم والجحيم.

في القاهرة أحياء باريسية، وأحياء بغدادية، وأحياء دمشقية، فيها مشابه من جميع البقاع وجميع البلاد.

فيها منازل لا يدخلها الفأر بسبب النعمة، ومنازل لا يدخلها الفأر بسبب الجوع.

في القاهرة ناسٌ يموتون من الظمأ، وناسٌ يموتون من الشراب.

في القاهرة خدودٌ تجرحها خطرات النسيم، وفيها وجوه تعجزُ عن لفحها النيران.

ومن الذي يصدق أن في أدباء القاهرة رجالا لهم مطابع لنشر مؤلفاتهم الخصوصية؟ من الذي يصدق أن في القاهرة مئات من الأدباء لهم في منازلهم مكتبات تشتمل على الألوف من نوادر المخطوطات؟

من الذي يصدق أن إبليس يقف مبهوتا أمام حيل الفجور في القاهرة؟

من الذي يصدق أن رضوان ينتظر أن لا يجد مكانا في الجنة بعد أن يحتلها القاهريون؟ من الذي يصدق أن أهل القاهرة يملكون من الحرية الصحفية ما لا يملك أهل باريس؟ من الذي يصدق أن القاهرة تملك أكبر مجموعة من الوجوه القباح والوجوه الصباح؟

القاهرة!

القاهرة!

رحم الله القلب الذي يتفطر لحرمانه من نعيم القاهرة!

أليس في القاهرة محطة باب الحديد، ومحطة الليمون، ومحطة حُلوان؟

أليس في القاهرة شارع عماد الدين وشارع المدابغ وشارع فؤاد؟

أليس في القاهرة مكان يُحرم أديمه من أقدام الأسواد وأقدام الظباء.

***

تنظر في شوارع القاهرة فترى شيخا يهطع لإلقاء عظة في مسجد، وترى فتًى متأنقا يمضي إلى موعد غرام في مصر الجديدة أو حُلوان، وترى رجلا يحمل أوراقه ليناقش الميزانية في مجلس النواب، وترى فتاةً تصاولك بعينين مصوغتين من السحر الحرام أو الحلال، وترى فقيرا مسكينا يستجدي لقمةً يتبلغ بها في الصباح أو في المساء.

القاهرة!

لطف الله بأهل القاهرة!

في القاهرة مئات من الأندية الخصوصية والعمومية، وفيها ألوف من الزوايا والمساجد والحانات.

ألم تسمعوا أن الحكومة المصرية غضبت مرة فأغلقت مائة جريدة في يوم واحد؟

مائة جريدة؟

إي، والله، مائة جريدة، كان لها محررون وقراء ومشتركون، وإن ضعف بعضها وهان. في القاهرة جرائد لا يقرؤها غير الرجال، وجرائد لا يقرؤها غير النساء.

ولكل حي من أحياء القاهرة ضروب من الرموز والإشارات.

ولكل فئة من الصالحين والماجنين أساليب في الرمز والإيماء.

في القاهرة قهوات سيدنا الحسين وسيدنا عماد الدين!

في القاهرة مائة زاوية للصوفية، وفيها مائة غرزة لتدخين الحشيش!

القاهرة!

القاهرة!

ومن الذي يستطيع أن يتعقب حركات العقول والأهواء في القاهرة؟

من الذي يستطيع أن يحاور في الصباح والمساء رجال الصحف الصباحية والمسائية؟

من الذي يتسع وقته لمسامرة الصحفيين القاهريين بعد نصف الليل؟

من الذي يستطيع أن يسجل حركات القاهريين قبل الشروق؟

من الذي يفهم أن أهل القاهرة يموتون قبل الأوان بسبب الإفراط في الكدح والكفاح؟ من الذي يصدق أن من أهل القاهرة من يملأ الدنيا بالنشاط والحركة وفي جوفه خمسون علة؟

من الذي يصدق أن في القاهرة ألف خطيب في فصاحة سحبان؟

من الذي يصدق أن الأمان ذهب من القاهرة بسبب الإفراط في المنافسة والنضال؟

من الذي يصدق أن زكي مبارك سيؤلف كتابا في مثالب زكي مبارك؟

آه، ثم آه!!

هذه القاهرة صارت موئل الخائفين، وهي لأهلها مصدر خوف.

يستطيع أصغر متعلم في أي بلد عربي أن يحتل أكبر المناصب، ولا يستطيع أكبر متعلم في القاهرة أن يصل إلى القوت إلا بشق النفس.

ومن الذي يصدق أننا نضيق عن ملاقاة الأهل والمعارف والأصدقاء في الأعياد؟

من الذي يصدق أننا لا نرى شوارع القاهرة إلا كما يراها المعجلون من عابري السبيل؟

في القاهرة موسم الشتاء حيث تحشر فيها غرائب الجمال من جميع الصنوف.

وفي القاهرة موسم الصيف حيث تصل لياليها إلى أبعد حدود الحسن والطيب.

وفي القاهرة تعرض جميع الفنون من الشعر والتمثيل والرقص والغناء.

وفي القاهرة تسمع أصوات محمد رفعت وفتحية أحمد وحياة محمد وأم كلثوم وعبد الوهاب.

ولكن أين الوقت الذي نتابع به ما في القاهرة من غرائب وأعاجيب.

في القاهرة كل شيء، وليس لنا منها شيء، نحن المجاهدين المكدودين الذي كتب الله عليهم الفناء في سبيل المجد أو في سبيل المعاش.

هنيئا لمن يزور القاهرة وعنده ذخيرة من الوقت والمال والعافية.

وبؤسا لمن يعيش في القاهرة بالسماع لا بالعيان.

ما أنت يا قاهرة؟

وصدق من سماك «قاهرة» فالقاهرة في عُرف أهل مصر هي المرأة اللعُوب!

***

كيف أعيش في القاهرة وأنا أشتغل سبع عشرة ساعةً في كل يوم؟

كيف أعيش في القاهرة ولي في البيت شاغل وفي عملي شواغل؟

كيف أعيش في القاهرة ولي فيها ألوف من الأعداء والمنافسين؟

كيف أعيش في القاهرة وأنا معرض في كل يوم لفتنة المباسم والعيون؟

كيف أعيش في القاهرة وهي قاهرة؟

قال اللائمون: كيف تؤلف كتابا عن «ذكريات باريس» وكتابا عن «وحي بغداد» ولا تؤلف كتابا عن «فتن القاهرة» وما يعلم اللائمون أني أسأل الله السلامة من الفتن، ما ظهر منها وما بطن، لا يعلمون أن رماح الداء لا تطعن في الجُسوم كما تطعن رماح القاهرة في القلوب.

وهل نستطيع معاقرة الحُب في القاهرة وإلى من يمشي في شوارعها وُجه هذا الخطاب:

وإنك لو أرسلتَ طرفك رائدا ... لقلبك يومًا أتعبتْك المناظِـرُ
رأيت الذي لا كلهُ أنت قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

وأين المدينة التي تزاحم القاهرة في مُساورَة القلوب والعقول؟

أين المدينة التي تُضِلُّ وتَهدي كما تُضل القاهرة وتهدي؟

إن الشيطان يجد في القاهرة مراتع لا يجدها في لندن ولا باريس ولا روما ولا برلين.

هي صلة الوصل بين الشرق والغرب. والجمالُ المُخضرم هو أفتن ضروب الجمال.

***

لقد هربتُ من القاهرة وسكنتُ بمصر الجديدة في منزل يواجه الصحراء، فهل أراني مع ذلك نجوتُ من فتن القاهرة؟

وكيف أنجو وهي تلاحقني عن طريق الإذاعة اللاسلكية وطريق التليفون؟

كيف أنجو من القاهرة وكان سحرها يتعقبني في باريس وفي بغداد؟

كيف أنجو من القاهرة وهي قاهرة؟

أردت أن أخصص يوما من كل أسبوع لمشاهدة ما يجدُّ في مكتبات القاهرة فضاق الوقت. وأردت أن أخصص يوما لمشاهدة ما يجد في ملاهي القاهرة فضاق الوقت. وأردت أن أخصص يوما لمحاورة الصحفيين بالقاهرة فضاق الوقت. وأردت أن أخصص يوما لمواجهة ضيوف القاهرة فضاق الوقت.

وأردت أن أخصص يوما لمسامرة أطفالي فضاق الوقت.

وأردت أن أخصص يوما لمحاربة أعدائي فضاق الوقت.

وأردت أن أخصص يوما لمجاهدة نفسي فضاق الوقت.

وأردت أن أخصص يوما لقتل ما في صدر زوجتي من عقارب الغيرة فضاق الوقت. فمن أنا في القاهرة ومن أنا في دنياي؟

لقد دعاني المسيو ماسينيون لسماع إحدى محاضراته بالجامعة المصرية فعجزت عن تلبية دعوته الكريمة، فهل يعرف أن بين بيتي وبين الجامعة المصرية أكثر من تسعين دقيقة بالوسائل السريعة؟ وتصل إليّ عشرات من الخطابات في كل أسبوع فأعجز عن الجواب في أكثر الأحيان، فمن يخبر قرائي بأن لي عذرا وهم يلومون؟

***

أما بعد فقد طوفتُ بشوارع القاهرة لأرى أعضاء المؤتمر الطبي الذي يُعقد في القاهرة لمواساة طبيب ليلى، شفاه الله وهداه، فهل رأيت أولئك الأطباء؟

ابتلعته القاهرة بلا ترفق، كما ابتلعت نشاطي بلا ترفق.

ولولا الموعد المضروب مع السيد عبود شلاش لعزّ عليّ أن أرى وجوه أطباء العراق. وجدتُ في هذه الليلة الدكتور صادق علاوي والدكتور هاشم علاوي، أما الدكتور عبد الأمير علاوي فقد ابتلعته القاهرة من أول لحظة، ولم نصل إليه إلا بعد أن فتشنا عليه أربع ساعات في ملاهي عماد الدين.

وفي هذه الليلة رأيت الدكتور سامي شوكت والدكتور صائب شوكت. أما الدكتور سامي شوكت فهو عقلية جبارة كان لي معها مصاولات في بغداد.

وأما الدكتور صائب شوكت فقد مرت إليه إشارة في الجزء الثاني من هذه المذكرات.

***

وفي هذه الليلة علمتُ أن الشيخ حسن سهيل قدم القاهرة لشهود المؤتمر الطبي، وقد مرت إليه إشارة في الجزء الأول من هذه المذكرات وفي هذه الليلة علمتُ أن الدكتور الريزه لي والدكتور حيدر جواد حضرا مع أطباء العراق، وفيها علمت أن الدكتور شوكت الزهاوي تخلف، وفيها علمت أن رجال المعارف بالعراق لم يحضر منهم أحد، وكنتُ أنتظر أن يحضروا لمواساتي.

وعفا الله عن الراوي والجمالي والألوسي!

***

واتصلتُ بعد نصف الليل بجميع فنادق القاهرة فعرفت أن الدكتور فلان لم يحضر، وهو زوج صاحبة اللسان الألثغ الملجلج، زوج السيدة التي فضحت وقاري في بغداد.

وشكوتُ حزني وبثي إلى الدكتور عبد المجيد القصاب فقال: لا تجزع فقد حضرت بنت خالتها من أجلك، وستراها في انتظارك على باب الجامعة المصرية في الصباح.

***

موعد غرام على باب الجامعة المصرية؟

آمنت بالحب!

وما الذي يمنع من أن تذكرني الجامعة المصرية بجامعة باريس؟

غدا أساور العيون على باب الجامعة المصرية، وكنت أعظم من ظفر بألقابها العلمية في عهدها القديم وعهدها الجديد.

***

أيتها الجامعة المصرية.

خذي بزمامي إلى الحب والمجد.

***

في مثل هذا اليوم من السنة الماضية بكرتُ إلى منزل ليلى بُكور الندى لنحضر معًا حفلة افتتاح المؤتمر الطبي في بهو أمانة العاصمة بدار السلام. واليوم بكرتُ لحضور حفلة افتتاح المؤتمر الطبي بقاعة الاحتفالات بالجامعة المصرية.

لبست ثوب البُونجور الذي فصلته في بغداد، ومضيت أتخطر في زهو وخُيلاء.

ولم يؤذني في طريقي إلا شيء واحد: هو المرور بحي الزمالك الذي يسمى «روضة البحرين» لأن النيل يحضنه من الجنبين، وما أسعد الحي الذي يحضنه النيل!

وما الذي يؤذيني من المرور بالزمالك؟

هنالك ليلاي التي لم ترع العهد ولم تحفظ الجميل.

هنالك الجدائل المعطرة التي كنتُ توهمتُها تشْعثَّت بعد رحيلي إلى العراق.

هنالك الدار التي لم تُسدل ستائرها على قلب أحرّ من قلبي، ولم تشهد هوًى أعنف من هواي، ولم تعرف بين المجانين أصدق مني، وستعرف تلك الدار كيف يحالفها الشقاء إلى أن أرجع إلى تنسُّم الهواء بشُرفاتها العالية، وسوف أرجع ولو كره الواشون.

***

مررت على الزمالك وأنا راغم لأنها طريقي إلى الجامعة المصرية.

مررت على الزمالك فخفق قلبي خفوقا عنيفا، وكيف لا يخفق القلب والزمالك كلها مراتع غزلان ومرابض أسود؟

تمهل، أيها السائق، تمهل.

فأنا أشتهي أن أحيي جميع من أراهم في الزمالك.

إن الزمالك تشبه سنتريس: لأنها تقع بين نهرين كما تقع سنتريس بين نهرين: الرياح المنوفي والترعة العامرية.

ولأن ليلاي في الزمالك تنطق اسم سنتريس بلسان ألثغ وصوتٍ مطلول.

أنا أحب الزمالك أشد الحب، وأبغضها أشد البغض.

أحب الزمالك من أجل ليلاي الظلوم.

وأبغض الزمالك لأنها تنافس مصر الجديدة، وفيها داري، الدار التي أقمتها على حدود الصحراء لمناجاة الشعر والخيال.

مررت على الزمالك مرور الغريب.

مررت على الزمالك مرور الطيف العاتب.

ثم نظرت فرأيتني أساير النيل لأصل إلى الجيزة الفيحاء.

وفي ذلك الطريق خفق القلبُ خفقةً ثانية، فهنالك الذهبيات المنثورة نثر الأمواج فوق بساط الماء، الذهبيات التي عرفها النيل منذ عهد الفراعين، والتي قضت بأن يتخوف عمر بن الخطاب على الجيش الذي كان يقوده عمرو بن العاص.

هنالك الذهبيات التي اصطبحتُ في أمثالها واغتبقتُ حين كنت من تلاميذ سيدنا عمر بن أبي ربيعة، رضي الله عنه وأرضاه!

ورحمة الله على الشباب الذي بددته في طلب الحب والمجد.

***

الله أكبر ولله الحمد!

هنا الجامعة المصرية، وهي اليوم تسمى «جامعة فؤاد الأول» لأن الملك فؤاد -طيب الله ثراه- كان أول رئيس للجامعة المصرية.

والجامعة المصرية هي -بلا جدال ولا نزاع- أعظم جامعة في الشرق، وطلابها اليوم يزيدون عن عشرة آلاف، وفيها حيوية أعظم من حيوية النيل في أيام الطغيان.

وللجامعة المصرية تاريخ يتلخص في أنها من صنع الأمة لا صنع الحكومة، كما عبر علي الشمسي باشا في حضرة الملك فؤاد، أكرم الله مثواه.

الجامعة المصرية بناءٌ شامخٌ أقامه المصريون لمقاومة الاحتلال، أقاموه بعزائمهم وأموالهم ليكون شاهدا على أنهم أهلٌ للحرية والاستقلال، وهو في مصر الإسلامية أعظم من الأهرام في مصر الفرعونية، وهو كذلك أعظم من الأزهر الشريف: لأن الأزهر أقيم لنصر مذهب على مذهب، أما صرح الجامعة المصرية فأقيم ليكون موئلا لجميع المذاهب والآراء، وليكون منارةً ترسل الأشعة إلى جميع أقطار الشرق.

وعن الجامعة المصرية تصدُر أقباس الهدى ودياجير الضلال: فهي محور الجدل والمراء، وهي التي تقدم الوقود للباحثين والكاتبين والخطباء والشعراء.

إن صدرت دعوة إلى الزيغ فهي من الجامعة المصرية.

وإن صدرت دعوة إلى الحق فهي من الجامعة المصرية.

فهي اليوم تهاجم، وخصومها يدافعون.

وموقف المهاجم أقوى من موقف المدافع في أكثر الأحيان.

للجامعة المصرية طريق لم تشهد مثل جماله العيون، وهو أطيبُ ما يكون في الصباح والأصيل والمساء.

يسير الطالب في ذلك الطريق صباحا فيبهره عبقُ الأشجار والأزهار من كل جانب، ويسير فيه مساء فيروعه جلال الليل في رحاب الجيزة الفيحاء.

وفي ذلك الطريق تختلط الظباء بالأسود، لأن الجامعة شرعت اختلاط الجنسين في التعليم ومهدت السبيل لطغيان العواطف وجموح الأحاسيس، وسيكون لذلك تأثيرٌ حسنٌ أو سيئ في تلوين الأخلاق، أما الأدب والفن فستكون لهما مغانم كثيرة من هذا الابتداع.

والجامعة المصرية تؤدي اليوم خدمة عظيمة للغة العربية بفضل تفوق أساتذتها في فنون التأليف، وسبقهم إلى ميادين المحاضرات والمناظرات، وحرصهم على رفع مكانة مصر العلمية.

وفي الجامعة المصرية رجالٌ أقوى من المردة وأذكى من الشياطين.

الله أكبر ولله الحمد!

هذه إدارة الجامعة المصرية وعلى يمينها كلية الآداب وعلى يسارها كلية الحقوق، وأمامها الميدان الذي أقيم فيه التمثال التذكاري لشهداء الجامعة المصرية في سبيل الوطنية.

وهذه قاعة الحفلات، القاعة العظيمة التي تذكر بالمدرج الأكبر في السوربون.

أقيمت هذه القاعة وفقا لرغبة الملك فؤاد الذي أراد أن تتسع لأكثر من أربعة آلاف، وفيها مقصورات للملوك والسفراء، ومقصورة للنساء المتأنقات، وأماكن تسمح للطلبة بأن يشاغبوا الخطباء وهم في أمان!

ولهذه القاعة مدخل للجمهور، ومدخل لجلالة الملك، وهي تصافح النور من كل جانب، ولها مسرحٌ فسيح الأرجاء يذكر بالمسارح العظيمة في عواصم الغرب.

ولكن الملك فؤاد -الذي أشرف بنفسه على تصميم هذه القاعة- نُقِل إلى جوار ربه قبل أن تراها عيناه.

رحمك الله يا فؤاد، وجعل في الجنة مثواك!

***

امتازت حفلة الافتتاح هذه السنة بمزيتين: الأولى أدبية، والثانية علمية.

أما المزية الأدبية فهي موقف الشاعر علي الجارم بك الذي ألقى قصيدة في مصر تذكر بقصيدته في بغداد، وقد سجل فضل مصر في القديم والحديث، وغنم الموقف في القاهرة كما غنمه في بغداد، مع فرقٍ

نُسجله للتاريخ، فقد اهتزت بغداد لقصيدة الجارم ودعاه وزير المعارف هناك لإلقائها بالإذاعة اللاسلكية، ولم تمض أيام حتى كانت قصيدته في بغداد من محفوظات الشباب والكهول، وقد لحنت لتغنى في الملاهي الشعبية، وستظل على ألسنة أهل بغداد عدة أجيال.

أما قصيدة الجارم في مصر فقد اكتفى الناس بقراءتها في الجرائد، وقد تنسى بعد حين، لأن مصر في هذه الأيام تُعنى بصراع العقول أكثر مما تُعنى بغناء الشعراء.

وأما المزية الثانية فهي محاضرة الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك في تسجيل ما صنع الدكتور أحمد البقلي في علاج مرض الفيل، وهي محاضرة شهدت بقدرة اللغة العربية على تأدية الدقائق الطبية.

ومحمد خليل عبد الخالق يشبه عبد الواحد الوكيل في أدب النفس، والفناء في خدمة الواجب، وسيكون لأمثال هذين الرجلين فضلٌ عظيم في إنهاض الدراسات الطبية.

***

وقعت في حفلة اليوم نُكتة: فقد شاء الجارم أن يسمي الدكتور علي باشا إبراهيم «أبا الحسن الجراح» فابتسم عميد كلية الطب وقال: أخشى أن يتطور اللقب فيصير «أبا الحسن المغفل»!

والدكتور علي باشا إبراهيم ابن نُكتة، وله ذوقٌ في الجمال، ويملك مجموعة من الأبسطة والسجاجيد تقدر بعشرات الألوف من الدنانير، ولولا شهرته بالبخل لاستهديته سجادة أقرأ فوق أزهارها أوراد الصباح.

***

لم أر في حفلة اليوم أثرا للنساء المليحات، فما هذا؟ وما سببه يا ناس؟

لعل السبب هو بُعد الجامعة المصرية: فبينها وبين القاهرة سفرٌ شاقّ، بسبب تعقيد المواصلات، أليس من المؤذي أن لا نصل إلى الجامعة إلا بالعبور فوق جسر فؤاد أو جسر عباس؟ ما الذي يمنع من أن يكون للجامعة طريق بالسيارات أو بالترام فوق جسر إسماعيل؟ لو نفذت الحكومة ما أقترحه لصارت الجامعة من منازل القاهرة.

ولكن الحكومة لا تسمع: لأن أقطابها يركبون السيارات الخصوصية، والذي يملك سيارة لا تدخل له المسافات الطوال في حسبان.

ثم خرجت مع السيد عبد الله عبد الغفار ومضيت معه إلى سكرتارية المؤتمر الطبي لآخذ كتاب المؤتمر وتذاكر الدعوات، فهالني أن أرى أني لست مدعوا للحفلة التي يقيمها رفعة رئيس الوزراء لأعضاء المؤتمر الطبي بقصر الزعفران.

وسألت عن السبب في حرماني من هذه الدعوة الكريمة فقيل: إنها خاصة بالضيوف، ولستُ بضيف: لأني مصري.

وعندئذ تذكرتُ ما وقع في مثل هذه الأيام من السنة الماضية، فقد تفضل جلالة الملك غازي الأول بدعوة أعضاء المؤتمر الطبي للتشرف بتناول الشاي في قصر الزهور، ونظرت فرأيتني محروما من تلك الدعوة الكريمة، فاتصلت تليفونيا برئيس الديوان الملكي وسألته عن السبب فقال: «إن الدعوة خاصة بالضيوف ولست بضيف: لأنك موظف في الحكومة العراقية».

فكرتُ فيما وقع هنا وهناك فتذكرت كلمتي الحزبية في كتاب «ذكريات باريس» إذ أقول:

«إن استقلال إرادتي حال بيني وبين الاندماج التام في هيئة من الهيئات، أو حزب من الأحزاب: فأنا عند أنصار الحزب الوطني شعبي يناصر الوفديين، وعند الوفديين خيالي يتشبث بالملحقات من زيلع إلى جغبوب، وأنا بين المؤمنين ملحد، وبين الملحدين مؤمن، وأنا بر عند الفجار، وفاجرٌ عند الأبرار: فأنا في كل بيئةٍ أجنبي وفي كل أرض غريب».

أحزنني ذلك لحظات ثم رجعتُ إلى رشدي فقلت لنفسي:

إن حرماني من تناول الشاي في قصر الزهور مع أعضاء المؤتمر الطبي شهادة رسمية بأني لم أكن في العراق من الضيوف، وحرماني من تناول العشاء في قصر الزعفران مع أعضاء المؤتمر الطبي شهادةٌ رسمية بأني لست في مصر من الضيوف.

فأنا مصري عراقي، كما يسميني أهل بغداد.

ولله الحمد على هذا التوفيق.

***

وفي عصرية [1] اليوم أقام سعادة عبد السلام الشاذلي باشا محافظ العاصمة حفلة شاي لأعضاء المؤتمر بحدائق الحيوان في الجيزة. ولا أعرف الشاذلي باشا معرفة شخصية، ولكن في ماضيه قصة طريفة: فقد كاد يحال إلى مجلس تأديب بسبب إسرافه في تجميل إحدى الحواضر –

(١) العصرية كلمة حية في مصر وهي تماثل Après midi في اللغة الفرنسية.

لا أذكر بالضبط أهي دمنهور أم أسيوط– فهو إذن من أرباب الأذواق، وسيكون له فضل في تجميل الأحياء القديمة بالقاهرة.

وقد استرقتُ السمع في محاورة بينه وبين سعادة العشماوي بك فعرفت أن الكلام متصل بالتفكير الجديّ في إنشاء دار عظيمة لبلدية القاهرة. فإن تم ذلك فسيكون من السهل أن تقام حفلات العشاء – الحفلات الرسمية– في دار وطنية، فنستغني عن فندق مصر الجديدة وفندق الكونتيننتال، فمن العيب أن تستقبل الحكومة ضيوفها في فنادق أسسها الأجانب.

***

وبعد تناول الشاي تدفّع الضيوف إلى مشاهدة الغرائب في حدائق الحيوان، وهي حدائق ليس لها نظير في الشرق، ولها خصائص لا توجد في أمثالها من الحدائق الأوربية والأمريكية.

ولحدائق الحيوان بالجيزة فضلٌ كبير في البهجة التي تتسم بها الأعياد القومية، وهي تصنع بالأذواق ما تصنع حدائق الجزيرة وحدائق القناطر الخيرية وحدائق حُلوان وحدائق الإسكندرية.

ومن المؤكد أن مصر وصلت إلى مبلغ عظيم من الافتنان في تنسيق الحدائق: فحديقة الأزبكية بالقاهرة لا تقل جمالا عن حديقة لكسمبور في باريس. وقد كانت حديقة الأزبكية مغطاة الأسوار تغطية تحجبها عن الناظرين، فما زلتُ أطالب برفع تلك الأغطية حتى استمع محافظ العاصمة وأمكن الناس من شهودها وهم يغدون ويروحون، وليته يبيح عبورها بالمجان.

ولم يبق إلا أن يتفضل جلالة الملك فيقبل الاقتراح الذي نشرته في مجلة الهلال منذ سنتين: فقد اقترحتُ أن تُرفع الأسوار التي تغطي حديقة قصر عابدين، وهي أعظم حديقة في القاهرة، ولو رفعت تلك الأسوار لشاهد الجمهور من نضرة النعيم ألوانا وأفانين.

وحجتي قوية في الدعوة إلى رفع تلك الأسوار: فقد وضعت يوم كان من المستحيل أن تنشر صورة لإحدى الأميرات في الجرائد والمجلات، أما اليوم وقد صار من المألوف أن تُنشر صور الأميرات فلم يبق موجب لأن تعيش حديقة القصر في ظل الحجاب.

يضاف إلى ذلك أن قصر عابدين لا يسكنه جلالة الملك إلا في أيام معدودات، وهو في أكثر شهور السنة يقيم بقصر القبة وقصر رأس التين.

ولأميرات مصر حجاب أحصن من الأسوار هو حجاب القلوب، لأنهن بنات فؤاد الذي أفنى قوته العاتية في خدمة الأمة المصرية، فؤاد الذي كان مثال الأبوة الكريمة للشعب الذي بكاه بدماء القلوب يوم مات.

إن رفع الأسوار عن حديقة قصر عابدين سيتيح لأهل القاهرة فرصة الأنس برؤية قصر الملك، فمن الخسارة أن يمر الإنسان بشارع حسن الأكبر أو شارع جامع عابدين أو شارع المبدولي ولا يحس أنه يساير حديقة غناء.

يا جلالة الملك فاروق:

تفضل بقبول هذا الاقتراح الجميل، حرسك الله ورعاك!

رجعت من حدائق الحيوان بالجيزة بعد الغروب في سيارة الدكتور محجوب ثابت، ومضيت معه فتركنا بطاقات التحية لمن نعرف من أعضاء المؤتمر الطبي العربي.

ثم انطلقتُ بأودية القاهرة لأحس ليلة العيد.

فماذا رأيت؟

لم أر شيئا غير هُيام القلوب في شارع فؤاد، وليس ذلك بجديد: فالقلوب تهيم في هذا الشارع في كل وقت ولا تنتظر المواسم والأعياد.

وبقيت حسرتي على ضياع الحظ من سهرة قصر الزعفران.

لو أتيح لي أن أشهد هذه السهرة لقابلتُ رئيس الوزراء، فقد فرطتُ في مقابلته بعد رجوعي من بغداد، ولعله يظن أني كنت في ذلك التفريط من الآثمين، ومن الذي يخطر في باله أني لا أخرج من البيت إلا قليلا بعد تأدية واجباتي الرسمية؟

من الذي يظن أني أنفق على الكتب والحبر والورق أضعاف ما أنفق على الطعام والشرب؟ عند الله والحب جزائي!

***

طوفتُ بشوارع القاهرة ما طوفت، ثم رجعتُ إلى داري مضعضع الأعصاب.

فما الذي وقع في قصر الزعفران؟

ليتني أعرف!

ليتني أعرف!

***

لبستُ اليوم بدلة البونجور مرة ثانية لأزور قصر عابدين مع أعضاء المؤتمر الطبي، فقابلت في طريقي إليه سعادة محمد باشا شفيق فقص عليّ أحاديث في تاريخ حي عابدين وما صنعه الخديو إسماعيل في تمدين ذلك الحي، وقد ذكرني في حديثه بما كان يقصه أستاذنا إسماعيل بك رأفت وهو يسمر مع أصفيائه بمنازل الحلمية الجديدة. فمتى يرسل الله إلى القاهرة رجلا مثل علي باشا مُبارك ليتحدث عن خططها في العصر الحديث؟

إن القاهرة تتشوف إلى مؤرخ، فمتى يُبعث ذلك المؤرخ؟

سيقام العيد الألفي للقاهرة بعد قليل، وستنشر عنها وزارة المعارف مجلدا أو مجلدين، ولكني أخشى أن لا تظفر القاهرة بغير أبحاث غبية بليدة لا تصور غير ما وعتْ كُتب التاريخ.

وأنا أعرف بصدق الفراسة أن القاهرة الحديثة لن تظفر بغير صفحات هزيلة من الأساتذة العظام الذين تعرفهم بعض المعاهد العالية.

وسوف تعلمون!

القاهرة اليوم لا يعرفها فلان وفلان من الذين لا يثقون بأعينهم كما يثقون بعيون المؤرخين، وفي الدنيا «علماء» يرون الرواية المدونة في كتاب أصدق من رؤية العيان!

القاهرة اليوم ألوان كثيرة لا يعرفها غير الراسخين في علم أسرار النفوس وسرائر القلوب. فأين الأدب الذي يسجل ما تضمر القاهرة من غرائب وأعاجيب؟

لقد كنت أحب أن أكون ذلك الأديب، ولكن هذا يعرضني لمتاعب يضيق عن دفعها الوقت.

ومن واجبي أن أراعي أني مسئول أمام وزارة المعارف، وهي تحدُّ من حرية الأديب. وأنا مع ذلك قلتُ في القاهرة كل شيء، كما قلت في بغداد كل شيء، فمن شاء فليكشف الرموز عما قلت في القاهرة وبغداد، فلا يزال في الدنيا أذكياء يفهمون أسرار الحروف.

***

دونتُ اسمي في تشريفات جلالة الملك وتمكثتُ عساني ألقى أصدقائي من أطباء العراق. فلما لقيتهم سألت: كيف كانت سهرتكم في قصر الزعفران؟

ثم هالني أن يقابل هذا السؤال بوجوم مزعجٍ.

- يا جماعة ما الذي وقع؟

- لم يقع شيء!

- يظهر أنكم غاضبون.

- لسنا غاضبين، وإنما نحن عاتبون.

وبعد أن قهرتهم على المكاشفة أخبروني أن رفعة رئيس الوزراء لم يحضر الحفلة مع أن الدعوة مذيلة باسمه، فضحكت ضحكة الاستغراب من أن يضايقهم غياب رئيس الوزراء!

ولما استوضحوني قلت: إن الدعوة موجهة من رئيس الوزراء، ولكنها ليست دعوة شخصية، حتى يجب عليه الحضور، وإنما هي دعوة الحكومة التي تنوب في مثل هذه الأحوال عن الأمة، فأنتم لم تكونوا في ضيافة محمد باشا محمود، وإنما كنتم في ضيافة الأمة المصرية. وقد دهشوا من هذا التفسير، فقلت: هو ذلك، ولكن أكثر الضيوف لا يعلمون!

***

وعندئذ عرفتُ الخطأ الذي وقع فيه مكتب رئيس الوزراء حين قصر الدعوة على الضيوف، لأن هؤلاء الضيوف لا يكتفون بأن يتحدث بعضهم مع بعض إلى أن يتناولوا العشاء، وإنما كان يجب أن يدعى معهم جماعة من أدباء مصر ليرفعوا عنهم أثقال الاستيحاش.

وأغلب الظن أن ما وقع ليلة أمس سيقع مثله في الحفلة التي يقيمها وزير المعارف والحفلة التي يقيمها مدير الجامعة المصرية.

فمن واجبي أن أنبه من ألاقيهم من الضيوف إلى أن تلك الدعوات ليست دعوات شخصية، وإنما هي دعوات قومية.

ومن عيوب مصر أنها قد تسكت حين يجب الكلام، وقد تتكلم حين يجب السكوت. فيا بني آدم من أهل مصر!

علموا أبناءكم سياسة الصمت وسياسة القول.

هنا القاهرة!

هنا القاهرة: وطن العُروبة.

هنا القاهرة: وطن الإسلام.

***

لم أحضر حفلة الشاي التي أقيمت في عصرية اليوم، وقد أقيمت حفلتان إحداهما بدار الهلال الأحمر والثانية بمصلحة الطب الشرعي.

وإنما مضيتُ إلى داري لأستجم وأستريح، عساني أصلح للسمر مع ضيوف القاهرة في المساء. وأنا أكتب هذه الصفحات بعد نصف الليل ورأسي مصدوع من الجدل الذي عانيته مع أهل سورية ولبنان والعراق.

وأقول بصوتٍ يُسمع من في القبور: إن بعض الأمم العربية أصيبت بنوبةٍ من الجنون، وهذه النوبة تعتادها في كل لحظة: وهي الزعم بأن مصر تقول: إنها فرعونية لا عربية.

وهذا الزعم هو في الأصل دسيسة استعمارية أراد بها المستعمرون أن يُفهموا العرب أن مصر ليست منهم «وإذا صح أن مصر ليست سنادا للعروبة فستكون العروبة خبرا من الأخبار بعد حين، لا قدر الله ولا سمح».

وكل كاتب يزعم أن مصر ليست عربية وإنما هي فرعونية فهو أحد رجلين: رجل مغفل لا يفطن إلى الدسائس الاستعمارية، أو رجل مأجور يعيش من فتات روما أو لندن أو باريس!

ويجب أن يكون مفهوما أن العرب يتعرضون اليوم لأزمة شديدة: هي اختبار ما يقرءون وما يسمعون، فإن نجحوا في هذا الامتحان فسيكونوا من السعداء.

تجلس مع شاب طيب القلب من أهل سورية أو لبنان فتحادثه محادثة الصديق للصديق، ثم تراه ينقلب فجأة فيقول: ولكن مصر تقول: إنها فرعونية!

وما تكاد تسمع هذا القول حتى تعرف أن ذلك الشاب السوري أو اللبناني من المساكين، لأنه انخدع بما سمع من أبواق الزور والبهتان.

***

وأردت أن أصل إلى سرّ العتب على مصر فسمعتُ هذا السؤال من أحد الأطباء:

- ولماذا لا تقرءون مجلاتنا كما نقرأ مجلاتكم؟

فنظرت إليه نظرة الغضب وقلت: أنتم تقرءون مجلاتنا لأنها تقدم إليكم ما تشتهون من غذاء العقول والقلوب والأذواق، ونحن لا نقرأ مجلاتكم لأن مجلاتنا شغلتنا شغلا عنيفا، وصرفتنا عن التطلع إلى ما تُصدر المطابع في غير مصر من البلاد العربية.

ورجع الطبيب الذي أحاوره إلى عقله لحظة ثم قال:

- هذا حق، ولكن ...

- أفصح أيها الطبيب.

- ولكنكم لا تعرفون رجالنا كما نعرف رجالكم.

- أنتم تعرفون رجالنا ونحن نجهل رجالكم لسبب يخفى عليكم.

- وما هو ذلك السبب؟

- اسمع، أيها الطبيب، اسمع ما أقصه عليك ثم انقله إلى كل من يعترض على نحو ما تعترض.

- إليك أذني وقلبي وعقلي: فأنا أحب أن يزول عتبي على مصر.

- اسمع، أيها الطبيب، إن حرية الصحافة مزية تفردت بها مصر بين سائر أقطار العربية، فجرائدكم ومجلاتكم لا تحدثكم عن شمائل رجال السياسة، ولا تكشف لكم عن بواطن الحقائق السياسية، جرائدكم ومجلاتكم لا تقول إلا ما تحب حكوماتكم أن تقول، فهي تترك في أفئدتكم فراغا عظيما ينتظر من يحتله من الأقلام الحرة في وطن النيل، ولك أن ترجع إلى نفسك فتسألها عن السبب في غرامكم بمطالعة الجرائد المصرية والمجلات المصرية، إن جرائدنا ومجلاتنا تصور رجال السياسة تصويرا لا يعرف التزويق ولا التهويل هي تُشعركم بأن الوزراء بشرٌ مثلكم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وأنتم من أجل ذلك تعرفون من رجالنا ما لا نعرف من رجالكم. أستغفر الحق: فأنتم تعرفون من رجالنا ما لا تعرفون من رجالكم.

- ما معنى ذلك؟

- معناه، أيها الطبيب، أن السوري واللبناني يعرف رجال مصر أكثر مما يعرف رجال سورية أو لبنان أو العراق، لأن جرائدنا تتحدث عن رجالنا

بصراحة لا تعرفها الصحافة في سائر البلاد العربية، وفي قلوبكم فراغ كبيرٌ ينتظر من يحتله من رجال الأدب والبيان.

- زدني، زدني.

- إن مصر هي اليوم محور القضية العربية، والأوربيون أنفسهم يعرفون ذلك: فهم يبذلون نشاطهم في مصر ليستطيعوا السيطرة على البلاد العربية، فنحن في محنةٍ لا تخطر لكم في بال: لأننا نقاوم كفاح الغرب وعتاب الشرق، ولذلك تفاصيل أطويها عنك ترفقا بحياتك الغالية، وجزاؤنا على ذلك كله أن تقولوا: إننا فراعين لتعينوا أوربا وأمريكا على الطعن في العروبة المصرية.

- زدني، زدني، زدني.

- ومصر تُشتم في بلادكم كل يوم، وتقرءون تلك الشتائم باسِمِين، مع أن فينا من يبيت مؤرق الجفون حين يسمع كلمة لا تليق في حق إحدى الأمم العربية.

- هذا مستحيل!

- هذا مستحيل؟ وكيف؟ انظر أيها الطبيب ثم احكُم: فمصر هي المسئولة عن التنويه بالجمال المبثوث في سائر الأقطار العربية، وهي المسئولة عن الدعوة إلى مصايف الشام ولبنان، وهي المسئولة عن إحياء الثقافة العربية والإسلامية، ولكن ليس من حق مصر أن تقول: إنها أمة عربية إسلامية، وإلا حقت عليها غضبة العرب والمسلمين!

- ما هذا الذي تقول؟

- كذِّبني، إن استطعت، ولك أن تذكر السبب في التحامل على مصر، التحامل البغيض الذي يصدر عن ناس لم يلقوا منا غير الإكرام والإعزاز والتبجيل.

- ومن هم الذين يشتمون مصر؟

- لا أريد أن أسميهم، وهُم يعرفون أنفسهم.

- من هم؟

- هم إخوان أعزاء يقابلون المعروف بالنكران!

- من هم؟ من هم؟

- هم أصدقاء لطاف ظراف يتدللون علينا تدلل الأبناء على الآباء.

- من هم، من هم؟ من هم؟

- أظنني أوضحتُ.

- لم تُوضح، وإنما تركتني في عماية وضلال.

- اسمع، أيها الطبيب، أنا لا أهتم بالأشخاص وإنما أهتم بالمبادئ، وما يهمني أن يخطئ فلان أو فلان، وإنما يؤذيني أن تخطئ الأمة الفلانية.

- ومن هي تلك الأمة الفلانية؟

- هي تلك الأمة الفلانية!

- وهل كتب الله على الدكتور زكي مبارك أن لا يتكلم بغير الرمز والإيماء؟

obeikandl.com

- وهل كتب الله عليكم أن لا تفهموا بغير التصريح؟

- اسمع، يا دكتور!

- قل أسمع.

- إن مصر تنسى أننا نميل على جوانبها كما يميل الأبناء على الآباء.

- أشكر لك هذا اللطف، ولكن هل تظن أن الستة عشر مليونا في مصر تفطن إلى هذه الدقائق الذوقية؟ هل تظن أن سكان مصر كلهم سيقولون: إنكم تشتموننا من باب الدلال؟

- نحن نشتمكم؟ معاذ الله!

- اسأل المعاجم تخبرك.

- وماذا تقول المعاجم؟

- المعاجم تشهد بأن ألفاظكم تخرج على الذوق في أكثر الأحيان.

- ولكنكم تقولون: إن مصر فرعونية.

- تلك هي اللوثة التي تعتادكم من حين إلى حين!

- وهل نحن ملتاثون؟

- معاذ الله، وإنما أنتم فضلاء وأذكياء، وآية ذلك أن تقولوا: إن مصر ليست عربية مع أن مصر تنفق ملايين الدنانير في كل عام لنشر اللغة العربية.

- ولكن مصر تقول: إنها إسلامية.

- نعم، مصر تقول: إنها إسلامية لتسند العروبة.

- كيف؟

- إن العروبة مدينةٌ للإسلام، ولولا الإسلام لظلت بلاد العرب بلادا ذليلة يعتدي عليها الأحباش من جانب، والفرس من جانب، والروم من جانب.

- ولكن نبي الإسلام كان بطلا عربيا.

- ولم يكن نبيّ الإسلام بطلا عربيا، وإنما كان بطلا عالميا، والمرض الذي تعانيه بعض القلوب لم يأت إلا من الجهل بهذا الموضوع الدقيق، فالإسلام هو الذي مكن العرب من السيطرة على العالم بضعة قرون، والقرآن تحدث عن موسى وعيسى بأفضل مما تحدثت التوراة أو تحدث الإنجيل، وقد كان نبي الإسلام أعظم رجل عرفه الشرق: لأنه حرص على إحياء ما في الشرق من معانٍ ذوقية وروحية، ولو كان من أهل الأثرة والأنانية لحارب اليهودية والنصرانية.

- الإسلام لم يحارب اليهودية ولا النصرانية؟

- الإسلام لم يحارب اليهودية ولاْ النصرانية، وإنما حارب الابتداع عند النصارى واليهود.

- أنت بذلك تغير وجه التاريخ.

- المضللون هم الذين يطمسون معالم التاريخ.

- ومن هم أولئك المضللون؟

- هم الذين يستكثرون أن نكون عربا ومسلمين.

- ولكنكم تدعون إلى الخلافة.

- من قال ذلك؟

- تقوله جرائدكم في كل يوم.

- ذلك كلام ينشر في الجرائد المصرية نقلا عن الجرائد الإنجليزية والإيطالية.

- خبلتني!

- أنت لا تحتاج إلى خبال جديد!

***

تلك خلاصة المحاور التي وقعت بيني وبين الطبيب «ف.ص.ج» وهو عربي مخلص له في سورية ولبنان أعمامٌ وأخوال، وقد استظل بأفياء مصر حينًا من الزمان. ولكن ما موقف مصر من هذه الشئون؟

أنا لم أر أحمق من المصريين: لأنهم قد يتكلمون حين يجب الصمت، وقد يصمتون حين يجب الإفصاح.

إن مصر عربية، وهي في عروبتها أصدق من بلاد الحرمين، وطن النبي العربي الأمين، ولكنها تفتح الباب للدساسين الذين يذيعون الشكوك حول القومية العربية.

ومصر لا تنوي أن تعيد نظام الخلافة الإسلامية، ولكنها لا تؤدب من «يمضغون» حديث الخلافة من حين إلى حين، ليصلوا إلى بعض المآرب الشخصية.

ومن العجيب أن مصر لا تسأل أبناءها المخلصين عن دقائق هذه الشئون، ولا تفكر في الاستنارة بآراء من عرفوا الاتجاهات المختلفة في الشرق.

أليس من الغريب أن لا يفكر وزير الخارجية مرة واحدة في محادثة الأساتذة الذين عاشوا في الحجاز أو اليمن أو الشام أو العراق؟

أليس من الأغرب أن لا يفكر صحفي واحد في استطلاع ما عندنا من فهم الاتجاهات السياسية في الشرق العربي؟

إننا نقرأ الجرائد فنعجب لأفهامها الخواطئ عن الشرق.

وأكاد أجزم بأن ما ينشر في أكثر جرائدنا عن الشرق لا يزيد في الصحة عما نشرته مجلة «الموظف» عن إيوان كسرى حين زعمت أن أنقاضه نُقلت إلى البصرى والكوفة، مع أن هذا في حكم المستحيل، والذي يحكم هذا الحكم يجوز عنده أن تنقل أنقاض بعض المنازل من القاهرة إلى أسوان!

لم يسألنا أحد من رجال السياسة أو رجال الصحافة عما عرفناه من الاتجاهات السياسية في الأمم العربية، ولعلهم كانوا ينتظرون أن نسعى إليهم لنبصرهم بما يجهلون!

فما الذي عندي من الحقائق التي تدوينها في هذه المذكرات؟

لم ألتفت في العراق إلى السياسة المحلية، وهل ألتفت إلى السياسة المحلية في مصر حتى ألتفت إليها في العراق؟

لم يكن يهمني من السياسة في العراق إلا فهم الجوانب المتصلة بالسياسة الدولية للأمم العربية، أو الأمة العربية لا يعبر الأستاذ أبو خلدون، وقد فهمتُ مما رأيتُ وسمعتُ واستنتجتُ أن الأمم العربية تنفر أشد النفور من فكرة الخلافة، وهم يرونها من علائم السيطرة والاستعلاء.

فمن الحزم أن تنفض مصر يدها من هذه الفكرة جُملة واحدة، ومن الحزم أن يفهم المصريون أنهم ليسوا أعقل من الأتراك.

وما هو أثر الخلافة الإسلامية في التاريخ؟

لقد كانت دائما مصدر نزاع بين الأمم العربية والإسلامية، وبسببها فاضت سيولٌ من الدماء، ومن أجلها تناحرت أممٌ وشعوب.

يجب أن نحدد الغرض من اتصالنا بالأمم العربية، فهذا الاتصال ليست له صبغةٌ استعمارية، بالتأكيد، لأن الأمر بيننا وبين إخواننا العرب لا يزال عند قول شوقي:

وعلينا كما عليكم حديدٌ تتنزّى الليوثُ في قُضبانِه

المنفعةُ الحقيقية لمصر هي أن تشترك في إحياء النهضة العلمية بالبلاد العربية، وهذا الاشتراك ليست له منافع ترجع إلى الجيوب، ولكن منافعه المعنوية أعظم مما يتصور الشعراء حين يستوحون الخيال. ومن الشرف لمصر أن تكون دولة لها مطامح معنوية، فهذه المطامح المعنوية تزيد ثقة المصريين بأنفسهم، وتسوقهم سوقا إلى ميادين المجد، وتقهرهم على الإكثار من تزويد عقولهم بزاد العلم الحديث.

فإن لم يكن بد من النص على المغانم العاجلة فإني أقول: إن اتصال مصر بالأمم العربية اتصال ثقافة ومودة وأخوة يخوِّف أعداءها أخطر تخويف، لأن الأمم العربية فيها نخوةٌ وشهامة، وحرصها على مودة مصر يُدخل في صدور أعدائها الرُّعب، وسلاح العطف ليس بالسلاح المفلول؛ فمن المؤكد أن إنجلترا لا تُلايِنُ مصر إلا وهي تعرف أن لها قوتين: قوتها الذاتية، وقوتها المكسوبة من عطف الأمم العربية.

وأنا لا أرتجل هذا الكلام ارتجالا، وإنما هو كلامٌ أفدتُه مَن التجاريب: فالإنجليز يعتقدون أن الثورة الهندية كانت صدى للثورة المصرية، وهم يعتقدون أن غضب مصر بعد الهدنة كان له تأثيرٌ في أكثر أقطار الشرق. وأندية لندن وروما وباريس تنظر بعين الحذر والخوف والجزع إلى ذيوع الثقافة المصرية في الأقطار الشرقية. وما تسنَّم الحُكم رجلٌ من ساسة الغرب إلا فكر في الاحتراس من خطر القاهرة في الشرق.

وهذه الأمم العربية -التي نشترك في إنهاض حياتها الأدبية والعلمية والاجتماعية- سيكون لها بإذن الله شأن وشئون، وإذا صح أن ننتفع بعطفها وهي ضعيفة فسننتفع بعطفها وهي قوية، وإذا جاز أن تنافسنا هذه الأمم في الأيام المقبلات فستكون المنافسة المنتظرة حافزا يدعونا إلى مضاعفة الجد والنشاط. ولا يخاف المنافسة إلا الضعيف، ولسنا ضعفاء.

وأنا أصرح علانية بأني مهدتُ لهذه المنافسة وأنا في العراق، ولو بقيتُ هناك مدة وافيةً لخلقتُ للقاهرة منافسًا خطيرًا هو بغداد.

وما خنتُ وطني بذلك: لأن وطني لا يسرُّه أن تخمد جذوة الحماسة العربية.

وخلاصة القول أن مصر لا تسود بغير الإخلاص ونكران الذات.

من حق مصر أن تتغطرس حين تنظر إلى الغرب، ولكن من واجبها أن تتلطف حين تنظر إلى الشرق.

والشرق جُرِّب مرةً فأقام الدليل على أنه أهلٌ لحمل الأمانة العلمية، كما قال الدكتور عبد الرحمن عمر، فما الذي يمنع من أن نكون جادين أصدق الجد في مقاومة الغرب؟

إن أعظم مجد لمصر هو أن تستطيع التفاهم مع الأمم العربية والإسلامية في الشرق لتخلق منهم دروعا حصينة تقي اللغة العربية من عدوان اللغات الأجنبية.

وذلك لا يتم إلا بشرط واحد: هو أن تسلم مصر من الاتهام بالغرض.

ومصر خالية خلوا تاما من الغرض، ولو عرفتُ عنها غير ذلك لفضحتها بقلمي: لأن الحق عندي أعزّ وأشرف، ولكنها مع الأسف تسكت عن الدسائس والوشايات، وتمنح الفرص السوانح لمن يتجرون بالخوض في أعراض الشعوب.

وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول:

عُقد في القاهرة «مؤتمر الخلافة» منذ أكثر من عشر سنين فرأيت أن أسأل بعض «العلماء» عما تستفيد مصر من الخلافة فقيل: إن للخلافة مزية هي توطيد مركز «العلماء».

فمن هم أولئك «العلماء» حتى نعرّض مصر في سبيلهم للقيل والقال؟

وما هو الأزهر نفسه حتى نبلبل من أجله خواطر الأمم العربية والإسلامية؟

يجب أن يذهب لحاله كل من يحترف السياسة أو الدين في سبيل الرزق.

يجب أن نكون من أمثلة النزاهة والإخلاص لنضع الحجر الأول في بناء الشرق الجديد وهذا حال مصر في هذه الأعوام، ولكنها تسكت سكوت المريب، فتفتح الطريق للدساسين من أهل الشرق والغرب. وصدق المتنبي حين قال:

ولم أر في عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التمام

إن مصر شريفة الأغراض إلى أبعد الحدود، وفيها أريحية تفرض عليها التضحية في كثير من الأحوال، ولكنها تعمل ولا تتكلم في زمن لا يغني فيه العمل عن الكلام، لأنه يقوم مع الأسف على الدعايات.

***

وهذا الدرس البليغ أخذته عما اتصل بحياتي الأدبية:

أُغرمتُ بالأدب الفرنسي منذ سنة ١٩١٥ فراعني أن أراه يتحدث عن أزمات القلوب والنفوس والعقول بأساليب لا أجد لها نظائر في الأدب العربي، فقررتُ أن أرجع إلى نفسي لأفتش عما فيها من أسرار وغرائب وأعاجيب، عساني أمد الأدب العربي بذخيرة جديدة من ذخائر النفوس والقلوب، ومضيتُ فدرستُ طوائف من الغرائز والطباع والميول لأستطيع تأريخ النفس الإنسانية في العصر الحديث وقد جمعت من ذلك كله محصولا يعز على من رامه ويطول.

ثم هالني أن أرى الناس ينظرون إليّ نظرات الريبة والاحتراس، وأزعجني أن يصارحني بعض الأصدقاء بالقطيعة لأنه يخاف على أهل بيته من الشاعر الذي يقول:

أصباكَ ما خَلفَ السِّتار وإنما ... خَلفَ الستائر لُولُو مكنونُ
والناس في غَفَلاتهم لم يعلموا ... أني بكلِّ حسانهمْ مَفتونُ

ولما دخلتُ بغداد وجدت ناسا يرتابون في أمانتي بسبب مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب «حب ابن أبي ربيعة» وفي تلك المقدمة كلام قلتُه في الدعوة إلى الأدب المكشوف.

وأنا الذي جنيتُ على نفسي: لأني لم أبين المراد من الأدب المكشوف، وما أردت به إلا الصدق في تصوير العواطف والأهواء، ليكون في ذلك مادة تنفع في دراسة علم النفس.

ومن المستحيل أن أريد الدعوة إلى الفجور والمجون، لأني بحكم أعمالي الرسمية من رجال التربية، ولأني رجلٌ متأهل وله أبناء، ولأني أتسامى إلى أكبر منصب من مناصب الخدمة الوطنية.

وما الذي كان يمنع من تحديد الغرض الذي قصدت إليه حين أثنيت على الأدب المكشوف؟ منع من ذلك أني اعتمدت على عقول بني آدم وفيهم أذكياء.

ومن هنا جاء الغلط: فالجاحظ وابن قتيبة والثعالبي كانوا يعرفون أن مؤلفاتهم لن تصل إلا إلى المياسير من الخواص، أما أنا فأعيش في عصر كثر فيه نقل المؤلفات من أرض إلى أرض، ومؤلفاتي ذائعة ذيوعا لم أكن أتوقع أن تصل إليه، وقد يكون في القراء من يخفى عليه أني أدعو إلى

مبادئ أخلاقية سامية أغشيها بالفُتون كما يصنع الطبيب في تغشية «البرشامة» المرة بغشاء من الحلواء.

وقد يكون لي خُصوم يتخذون من أدبي ذريعة إلى إقصائي عما أطمح إليه من المناصب العالية، وهؤلاء الخصوم قد يعرفون في سرائر أنفسهم أني من أهل الصدق، ولكن الخصومة لها طبائع سُود، وهي تحرِّف الكلم عن مواضعه بلا تهيب ولا استحياء.

والأصدقاء أنفسهم قد يرتابون فيما يقرءون، وهل أنسى ما وقع بيني وبين الأستاذ سعد اللبان؟

إن الأستاذ سعد اللبان صديقٌ حميم، وهو من الذين يعرفون دقائق الرموز والمعاريض، ولكنه مع ذلك أسرّ إليّ مرة أنه يحب أن يعرف مبلغ الصدق فيما تحدثت به عن نفسي في كتاب «ذكريات باريس».

وقد ضحكتُ ضحكةً أصرح من ضحكاته الصريحة، وأكدتُ له أني صادقٌ في كل ما تحدثت به عن نفسي من غراميات باريس!

ولما نشرتُ مذكراتي عن غرامي بمرجريت ورعاية ابنها موريس كتب إليّ ناسٌ من بغداد يرجونني أن لا أفضح نفسي على نحو ما صنعتُ في نشر تلك المذكرات، لأن ذلك يؤيد حجة خصومي هنا وهناك.

كان عليّ أن أعتبر بما رأيت وسمعتُ، كان عليّ أن أعتبر منذ اليوم الذي أعلن فيه الدكتور طه حسين رأيه في كتاب «مدامع العشاق» بمقال نشره في جريدة السياسة وصرح فيه بأن كتاب «مدامع العشاق» يجرِّض على الشهوات.

***

ماذا أريد أن أقول؟

أريد أن أقول: إن العقل يفرض أن نوضح أغراضنا فيما ننشر من رسائل ومؤلفات، فلو أني كنت أفصحت عن غرضي منذ أول يوم تصديتُ فيه للنشر والتأليف لأعفيتُ نفسي من متاعب القيل والقال.

ولكن تجريح الأفراد غير تجريح الشعوب.

فمؤلفاتي حين تُفهم فهما خاطئا لا تضر أحدا غيري، وأراجيف المفسدين لها نتيجةٌ صغيرة وهي إخراجي من خدمة الحكومة المصرية.

ولكن التجريح حين يوجه إلى أمة تكون له عواقب أفظع وأشنع، فسكوتُ مصر عما يوجه إليها من تُهم كواذب قد يعطل رسالتها العلمية في الشرق، فيضرنا مرة ويضر الشرق مرتين، لأن الشرق العربي يريد حقيقةً أن يثق بأن له إخوانا أشقاء في مصر، وهو يتأذى حين يوهمه المفسدون بأن العواطف العربية ليست إلا خداعًا في خداع.

وهذه الأزمة شهدتها بنفسي حين زرت لبنان وسورية وفلسطين والعراق، ولعلي أراها حين يوفقني الله لزيارة تونس والجزائر ومراكش، فأهل تلك البلاد الشقيقة يجزعون مرات في كل يوم لأن صنائع الاستعمار يوهمونهم أن مصر لا تفكر في غير السيطرة والاستعلاء.

وقد دار هذا الحديث بمنزل ليلى منذ نحو خمسة عشر شهرا، ودونتُ رأيي فيه بالجزء الأول من هذه المذكرات، ولا أذكر بالضبط ما دونتُ هناك: لأن وقتي يضيق عن مراجعة ما أكتب، ولكن المفهوم عندي أنه لا بد من إنشاء قلم خاص بمصلحة الصحافة لمراجعة ما يُكتب عن مصر في

سائر الأقطار العربية والإسلامية، ومراقبة ما يُنشر في جرائد مصر عن تلك البلاد.

ومن الواجب أن يكون الموظفون بذلك المكتب رجال لهم خبرة ودراية ومعرفة بأحوال الشرق، ومن أهل الغيرة على الأخوة العربية، ويجب حتما أن يكونوا عرفوا الشرق وأن يكونوا في صدق إبراهيم المازني وعبد الوهاب عزام ومحمد عبد العزيز سعيد ومحمد فهيم وعبد الواحد الوكيل، ومن إليهم من أفاضل الرجال. وإنما ألحُّ في الدعوة إلى إنشاء هذا القلم الخاص لأني أعرف أن الصحافة المصرية معرضة لخطر عظيم: هو محاكاة الصحافة الأوربية، والصحافة الأوربية تستبيح ما لا يباح!

ولو شئتُ لنصصتُ على أن أكثر الصحفيين عندنا شبان تعوزهم التجاريب، وفيهم ناس يشبهون النملة حين تقف فوق البطيخة: فالبطيخة عند النملة هي الكرة الأرضية، ومصر عند بعض الصحفيين هي أم الدنيا، وما سواها سرابٌ في سراب!

وبهذه المناسبة أذكر أني قرأت للأستاذ أميل زيدان كلمة حول الاختبار الصحفي بمناسبة تفكير كلية الآداب في إنشاء قسم للصحافة، وهو يرى أن أعظم سؤال يوجه إلى الطالب في قسم الصحافة هو السؤال الذي يشهد جوابه بأن الطالب يفهم جميع الظروف التي تظهر بها الجريدة اليومية من وقت إعداد المقالات إلى وقت ظهورها في السوق.

وقد فهمت من كلمة الأستاذ أميل زيدان أن «الخبر» له قيمتان: قيمة حقيقية وقيمة صحفية.

وهذا حق.

ولكنه سيرّ في طريق التضليل، ففي جرائد مصر أخبار لها قيمة عظيمة من الوجهة الصحفية، ولكنها مشئومة من الوجهة الوطنية: فكتابة مقال عن دخائل بعض البيوت ينفع نفعًا عظيمًا من الوجهة الصحفية، ولكنه مؤذٍ من الوجهة الوطنية، ونشر كلمة مثيرة للخواطر أجدى على الصحفي من الإشادة بكتاب جيد.

ونشر خبر يمزّق ما بيننا وبين بعض الأمم العربية من صلات يزيد توزيع الجريدة ألفا أو ألفين، ولكنه يرجع على مصر بالوبال.

فما الذي ستصنعه كلية الآداب حين تنشئ قسما للصحافة؟

أنا أرجو أن يكون لذلك القسم المنتظر فوائد غير التمهيد لأكل العيش وتقليل عدد العاطلين.

أنا أرجو أن يكون قسم الصحافة بكلية الآداب نواةً لوزارة الدعاية التي سننشئها بعد عام أو عامين، يجب أن لا يدخل هذا القسم غير الشبان المزودين بالألقاب الجامعية من الذين ظهرت عليهم أمارات الاستعداد للخدمة الوطنية.

وليس من العيب أن يفهم أننا نكون شبانا يصلون بيننا وبين أهل الشرق أو أهل الغرب. بل العيب كل العيب أن نترك علاقاتنا الخارجية تحت رحمة شبان تعوزهم التجارب من الذين يرون أن الخبر الكاذب أنفع صحفيا من الخبر الصحيح.

***

والغيرة على مصر تفرض أن أسجل المشاهدة الآتية:

لم أدخل مدرسة في القاهرة أو طنطا أو الإسكندرية أو أسيوط باسم التفتيش إلا حرصت على معرفة ما يقرأ التلاميذ في أوقات الفراغ.

وقد خُيِّل إليّ أن هذا أهم من ملاحظة الحضور والغياب.

فماذا رأيت؟

رأيت أن التلاميذ عندنا لا يقرءون المجلات الجدية، وإنما يكتفون بقراءة المجلات الفكاهية وهذا يخالف تمام المخالفة ما شاهدته يوم كنت في العراق، فالتلاميذ العراقيون يُقبلون على المجلات الجدية إقبالا شديدا، على نحو ما كان يصنع التلاميذ المصريون منذ عشرين سنة. وأذهب إلى أبعد حدود الصراحة فأقول:

إن مجلاتنا الفكاهية تُقرأ عندنا، أما مجلاتنا الجدية فتقرأ في غير مصر من الأقطار العربية، ولا يقرؤها في مصر غير الخواص.

فما معنى ذلك؟

معناه أننا عجزنا عن رياضة شبابنا عجزا قبيحا، ولم نستطع أن نقدم إليهم الجد في صورة مقبولة وأسلوب أخاذ، وتلك هي المهمة الحقيقية لسحر البيان.

ومعناه أيضا أننا لا نفكر في الشبان المصريين حين نكتب، وإنما نفكر في الشبان العراقيين والحجازيين واليمنيين والفلسطينيين والسوريين واللبنانيين وفي أمثالهم من شبان تونس والجزائر ومراكش. وهذا غرضٌ شريف، ولكن يجب أن يدخل الشبان المصريون في الحساب، لأنهم قوة هائلة جدا، ولأنهم سيحملون الأمانة العلمية في المستقبل القريب.

وقد جمعتُ المدرسين في إحدى المدارس الأجنبية وصرختُ في وجوههم: لماذا يزهد تلاميذكم في المطالعات؟

فقال قائل منهم: هذا عيب شائع في المدارس المصرية فكيف تؤاخذ به المدارس الأجنبية؟! وهذا الجواب أفحمني: لأني أعرف أن أكثر المدرسين عندنا يبخلون على أنفسهم بكتاب ثمنه خمسة قروش، فكيف أنتظر أن يولع التلاميذ بالمطالعات!

ولكن لا بد من التفكير في الخلاص من هذه القناعة العقلية.

إن متوسط ما يقرأ الشاب الفرنسي في العام الواحد ستون كتابا.

فكيف يجوز أن يمر العام على الشاب المصري بدون أن يطلع على كتاب واحد؟

العيبُ عيب المؤلفين.

وهل ضعف التأليف في مصر؟ مصر لم يضعف فيها التأليف، ولكنه منحرفٌ بعض الانحراف.

المؤلفون المصريون في هذه الأيام لا يفكرون في غير الخواص: فهم يشتغلون بتحقيق الأدب الجاهلي والنثر الفني في القرن الرابع وفلاسفة اليونان والتصوف الإسلامي وينسون أن من واجبهم أن يحدثوا الشبان عن معضلات العصر الحديث.

ومن المحزن أن أصرح بأن مصر لم ينبغ فيها كاتب يسيطر على عقول الشبان بعد المنفلوطي، وما كان المنفلوطي بأعلم من العقاد أو طه حسين، ولكنه كان أقدر منا جميعا على الوصول إلى أفئدة الشباب.

وقد ظفر المنفلوطي بمجد لم يظفر بمثله أعاظم الكتاب في باريس.

جلستُ مع المنفلوطي ساعة في المكتبة التجارية فطُلبتْ كتبه وهو حاضر أكثر من سبعين مرة، فمتى يُخلق الكاتب الذي تُطلب كتبه في الساعة الواحدة عشر مرات لا سبعين مرة؟ وقد تعب الدكتور طه حسين في محاربة المنفلوطي، ثم قال يوم مات: يجبُ أن يخلق في مصر المنفلوطي الجديد؟

***

ما لي ولهذا كله؟ يجب أن آوي إلى فراشي لأستعد لرحلة الغد مع أعضاء المؤتمر الطبي فلي معهم شئون وشئون.

إليّ، أيها القلم ولا يرعك أن يكون الفجر اقترب، فلا بد من تسجيل ما وقع في اليوم الثالث من أيام المؤتمر الطبي العربي.

لم أحضر الاجتماعات العلمية بكلية الطب، لأنيْ قضيت الليلة الماضية في جدال وإنشاء، والجدال والإنشاء يأخذان الوقود من عافية البدن وقوة العقل. وكذلك استرحتُ إلى الضُحى، ولم أخرج من بيتي إلا قبيل الظهر لألهو ساعة بالطواف حول شارع الألفي وشارع فؤاد وشارع عماد الدين.

وفي تمام الساعة الثانية كنتُ في ميدان إبراهيم لأصحب الضيوف إلى أهرام سقارة. ومن الواجب أن أسجل أني لم أر أهرام سقارة قبل اليوم، لأن المصري يجهل بلاده أقبح الجهل، وأستطيع أن أصرح بأني لم أر أسوان إلى اليوم، وسأراها بإذن الله يوم أذهب للتفتيش على بعض مدارس الصعيد، وتحقيقُ ذلك سهل: لأني أسافر في الدرجة الأولى بالمجان!

وهل رأيتُ الأقصر إلا يوم ذهبت إليها بالمجان مندوبا عن جريدة الأفكار سنة ١٩٢٢ لأصف قبر توت عنخ آمون؟

المصري في بعض أحواله تُعوزه غريزة التطلع إلى المجهول وهل يصدق أحد أني لم أر فلسطين وسورية ولبنان إلا حين سافرت بالمجان مندوبا من الحكومة المصرية لمداواة ليلى المريضة في العراق؟

إن كان المصريون جميعا في مثل حالي من حب العزلة والاعتكاف فسيفوتهم شيء كثير من فهم ألوان الوجود.

ركبتُ إلى سقارة، وأنا أجهل من الضيوف بطريق سقارة.

ولم أعرف «ستوديو مصر» إلا لأني كنت ذهبتُ إليه مدعوا لأشهد حفلة الافتتاح.

***

كانت الخضرة تروع الأنظار من الجانبين، وكان للوادي سحرٌ قهار لا يسلم من فتونه إلا من حُرم نعمة الإحساس.

ولقينا في الطريق نخلات تذكر بنخلات العراق.

ورأينا الإبل والشاة والأنعام وهي تتذوق لذة القرار فوق ظهر الأرض، فتذكرتُ أن المصورين لا يرون صورة السلام إلا في طمأنينة تلك الحيوانات فوق مرابع الأعشاب والبقول، وصح عندي أن المزية الأصيلة للإنسان هي التفرد بحمل الهموم والأحزان في سبيل الحب والمجد.

الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يغزو قلبه الحزنُ، ولا يعرف معنى الحزن من غير الإنسان إلا الحيوانات الراقية، فالحزن ليس علامة ضعف

وإنما هو علامة قوة، وما عاب الناس الحزن إلا لخوفهم من أن يكون بابا إلى الاستسلام والقنوط، فثورتهم عليه ثورة رجال يعرفون عواقب ما يشعرون.

ولو كان الحزن مما يشين في جميع الأحوال لما كان في الأنبياء بكاءون.

والكتب التي سيطرت على العالم –وهي التوراة والإنجيل والقرآن– لم تخلُ من حزنٍ وبكاء.

ومحمد صلى الله عليه وسلم بكى يوم مات ابنه إبراهيم.

وجميع العظماء ذاقوا ملوحة الدمع.

وأنا بكيتُ يوم فارقت ليلاي، وسأبكي أيامي في حماها إلى أن أموت.

***

هذه هي أهرام سقارة التي خلقت الجدل بين إسماعيل صبري وخليل مطران، وقد بينت ذلك في الطبعة الثانية من كتاب «الموازنة بين الشعراء» فلا أشغل نفسي به في هذا الحديث.

وها نحن أولاء نتنسم الهواء في بقعة صحراوية كانت ملعب الفراعين منذ آمادٍ طوال.

وما قيمة أهرام سقارة بجانب أهرام الجيزة؟

إن العظمة هنا أقل من العظمة هناك.

ولكن لسقارة مزية: ففيها مدافن العجول.

دخلت تلك المدافن مع الضيوف فهالني أن أسمع من «الدليل» كلاما لا يُقره ذوق ولا عقل، فقد ظن ذلك الجاهل أن المصريين لم يكونوا يعبدون العجول إلا لأنها مبقعة الألوان.

وما هي إلا لحظة أشرت إليه أن يسكت وانطلقتُ أقول:

سيداتي، سادتي:

أنتم هنا في ضيافة التاريخ، تاريخ الفراعين، وهم قومٌ حفظوا التوازن الدولي في التاريخ القديم، فمن العقوق أن تسمعوا فيهم ما لا يليق.

سيداتي، سادتي:

إن الفراعنة عبدوا العجول، ولكن لذلك سر يخفى على الجهلاء: فالفراعنة كانوا يعطفون على «البقر» أشد العطف، لأنهم كانوا يرون في البقرة صورة الخير وصورة الحنان، وعن الفراعنة أخذ الناس حب البقر في الهند وفي العراق، أما الهند فأخباره في هذا الباب لا تخفى عليكم وأما العراق فتاريخ الحجاج يسجله أصدق تسجيل، فقد نهى الحجاج عن ذبح البقر ليضمن الخير لأهل العراق، وكان ذلك فرصةً لسخرية بعض شعراء العراق من الحجاج.

فالفراعنة هم الذين أذاعوا في العالم القديم تقديس هذا النوع من الحيوان المستأنس الظريف، ولو شئت لقلت: إن «البقرة» أوفر حنانًا من المرأة، وقديما كان العرب يصفون المرأة الجميلة بأنها من بقر الْجِواء، وهم يريدون النص على حلاوة العينين وطراوة الحنان، وإن لم يفطن إلى دقائق هذا المعنى أكثر الشراح.

كانت الوثنية هي الدين الغالب في مصر قبل أن تهتدي إلى التوحيد، ولكن أي وثنية؟ هي وثنية شعرية جعلت العالم أمام أعينهم وأفئدتهم أمواجا من النور الوهاج.

والمهم أيها السادة أن تعرفوا أن مصر من أعظم أوطان المبادئ: كانت صادقة في الوثنية، وكانت صادقة في النصرانية، وكانت صادقة في الإسلام.

أما صدق مصر في الوثنية فيشهد به ما خلفت من الآثار الرائعة التي يندر أن يكون لها مثيل في العالم، وأتحداكم أن تثبتوا أن العالم القديم في أي بقعة من الأرض خلف آثارا تشبه أو تقارب ما خلّف الفراعين.

وأما صدق مصر في النصرانية فيشهد به التاريخ، فالمسيحيون كلهم يؤرخون بميلاد المسيح، أما نصارى مصر فيؤرخون بمذابح الشهداء.

وأما صدق مصر في الإسلام فهو أوضح من أن يحتاج إلى بيان، ويكفي أن تذكروا أن مدينة القاهرة تزدان بمجموعة نفيسة من المساجد ليس لها نظير في أي مدينة إسلامية، ومن حدثكم بأن في العالم الإسلامي مدينة يظهر فيها سلطان الإسلام كما يظهر في القاهرة فهو مضلل كذوب.

إن مصر أيها السادة هي البلاد التي استعربت استعرابا تاما منذ اطمأنت إلى الإسلام وهي التي دحرت الصليبيين ونَجَّت الشرق من بأسهم الشديد، وهي كذلك التي استعصمت وعزت فلم ينل منها التتار والمغول أي منال.

فأرجوكم -باسم الأدب والذوق السليم- أن لا تعرضوا لمصر في ماضيها القديم بما يسيء، فقد اعتنقت الوثنية عن صدق، ثم اعتنقت النصرانية عن صدق، وفتحت صدرها للإسلام عن صدق.

***

وعند هذه الكلمة صاح بعض الضيوف: ولكن مصر الإسلامية تسمح بشرب الخمر علانية!

فقلت: هذا حق، ولكنه من دلائل القوة الأخلاقية.

فقال: وكيف؟

فقلت: لأن المصري في سريرة نفسه يبغض النفاق، فهو يستبيح الإثم في العلانية، وقد يأنف من الإثم في الخفاء، وهذا الجهر بالمعاصي في مصر هو الشاهد على أن عندنا قوة خلقية، لأن المرء لا يجهر بالمعصية إلا وهو يحارب أقواما يقاومون العصيان، ولو ضعُفت الأخلاق العامة في مصر لما كان هناك موجب لأن يفتضح من يفتضح في طلب اللذات.

أضيفوا إلى ذلك، أيها السادة، أننا نلقى أوربا وجها لوجه، ولو اتفق ذلك الحظ السعيد أو المشئوم لغيرنا من المسلمين لشقوا به أعنف الشقاء.

إن أوربا تدخل إلينا من كل باب، ونحن مع ذلك نسد في وجهها جميع الأبواب. وقد تسمعون أننا نأخذ عن أوربا ما تملك من سيئات ونزهد فيما تملك من حسنات وهذا كذب وافتراء:

فمصر هي التي نقلت إلى اللغة العربية فرائد المؤلفات الأوربية، وما سمع إنسانٌ في الشرق بعلوم الأوربيين وآدابهم إلا بعد أن نقلناها إليه.

أنتم تعلمون أن تركيا كانت تسيطر على مصر سيطرة تكاد تكون فعلية، ومع ذلك تنسون أننا سبقنا تركيا إلى اقتباس المدنية الأوربية، فعرفنا أسرار الحضارة الحديثة قبل أن يعرفها الأتراك.

وعن مصر أخذ الشرق العربي أنظمة التربية والتثقيف، وعن مصر أخذ الشرق الإسلامي فكرة التوفيق بين العلم والدين.

قد تسمعون أن مصر أخذت عن الغرب نظام السهرات وأدب الرقص.

وهو كذلك.

ولكن متى سلم ابن آدم سلامة تامة من آفة التقليد السخيف؟

وما لكم لا تعترفون بأن من أهم مزايا مصر أن تكون من أقدر الأمم على تذوق ما تراه هدى وضلال؟

إن مصر أطلت فجأةً على بساتين الحضارة الحديثة فكانت أسبق الأمم الإسلامية إلى الفتنة بما في تلك البساتين من أزهار وأشواك.

أنتم لا تعرفون كيف امتحنا وابتلينا، يا إخواننا في الشرق أنتم لا تعرفون أنكم لو ابتليتم بمثل ما ابتلينا لكان مصيركم مصير آدم حين عصى ربه في الفردوس.

إن بعض الأمم الإسلامية رجعت إليها العصبية الجاهلية فأحيت لغاتها القديمة وزهدت في اللغة العربية: لغة القرآن، أما مصر فستظل بإذن الله إلى الأبد وهي الحصن الحصين للغة العربية.

وهنا هتف هاتف: أهذه محاضرة عن مصر؟

فقلت: عن مصر بلدكم، أيها الضيوف الأعزاء، ودفعُ التهم عن مصر يجب أن يقع من أنفسكم موقع القبول، إن عرض مصر هو عرض العروبة، والدفاع عن مصر دفاعٌ عن العروبة، ولولا إيماني بأن صدوركم تنشرح حين تذكر مصر بالخير الجزيل لطويتُ عنكم هذه الشمائل الغُرّ من أخلاق وادي النيل.

وما الذي تغنم العروبة حين تصح أراجيف المبطلين في عروبة هذه البلاد؟

إن مصر تشعر بأنها مسئولة أمام الضمير العربي، وهي من أجل ذلك تبذل ملايين الدنانير في كل عام لتقوية الثقافة العربية، ومن واجب العرب أن يشجعوا هذه الحماسة، وأن يفهموا أن تحاملهم على مصر قد يخلق أحقادا في بعض الصدور التي لا تُدرك جيدا قيمة الأخوة العربية.

***

وهنا اعترض أحد الضيوف قائلا: أنت قلت: إن المصريين عبدوا البقرة مع أن الصور المرسومة على جدران هذا المعبد صور ثيران.

فقلت: إنهم اختاروا الثور في بعض الصور ليسجلوا رأيهم في تمجيد القوة، ولو أنك زرت معبد الكرنك في الأقصر لرأيتهم صوروا الرجال بأسلوب ينافي الحياء، ليفهموا من لا يفهم أن الفحولة هي أعظم خصائص الرجال.

ثم خرجنا من المعبد الذي صورت فيه العجول لندخل السرداب الذي وضعت فيه توابيت العجول، وكنت فكرت في التمتع بلحظة لهو في ذلك

السرداب، وأغراني بذلك أن رأيت فتاة جميلة تشبه ظَمياء وهي تنظر إليّ نظر الحنان بعد أن سمعت خطبتي في الدفاع عن وثنية الفراعين، فسايرتها إلى السرداب مسايرة الطيش للشباب.

وقلت في نفسي: إن المصريين عصوا ربهم بعبادة البقر، فكيف يفوتني أن أتقرب إلى ربي بعبادة الظباء.

وفي أثناء الزحام الذي تدافع في ظلمات السرداب هجمتُ على تلك الفتاة فضممتها إلى صدري وقبلتها قُبلتين أثيمتين، وظل ذراعي طوقًا لخصرها النحيل إلى أن فضحتنا مصابيح السرداب، فنظرتُ إلى وجهها أجتلي ما فيه من إشراق وفتون فإذا هي امرأةٌ حيزبون!

فأين ضاعت تلك الفتاة؟

أين ضاعت؟ أين ضاعت؟

وكيف اهتدت إليّ هذه الحيزبون؟

أشهد بالله أنني تلميذ الشريف الرضي، الشريف الذي قال:

أيها القانص ما أحسنت ... صيد الظَّبَيات

فاتَكَ السرب وما زُوِّدتَ ... غير الحسراتِ

وبعد هذه الخيبة في الصيد خرجت إلى مقصف الشاي وأنا مكسوف، فاكتفيت بالجلوس خلف ستور المقصف مع بعض الضيوف، فأطل الدكتور عبد الواحد الوكيل وقال: تعال يا دكتور زكي لتسمع خطبة العشماوي بك، فنهضتُ متثاقلا لأسمع خطبة ذلك الرجل البليغ.

لم أر سعادة العشماوي بك ولا معالي الدكتور هيكل باشا مع أن الدعوة موجهة من وزير المعارف، وقد اعتذرتُ لمن سألوني بأن هذه ليست دعوة شخصية، وإنما هي دعوة وزير المعارف، والوزير نفسه ليس في القاهرة وإنما يقضي أيام العيد في أسوان.

***

آه ثم آه من أخطار السكوت: سكوت مصر عن تصحيح مركزها أمام الأمم العربية. عُدت بالسيارة مع أحد فضلاء العراق فحدّق في وجهي طويلا ثم قال: إن كان في الدنيا إنسان يصور الحق بصورة الباطل ويصور الباطل بصورة الحق فهو الدكتور زكي مبارك! إيش لون طبيب لخاطر ألله؟

فقلت: وأنا أبتسم: وأنت يا فتى العراق، ماذا تريد أن تقول؟

فقال: فهم الناس من خطبتك أن مصر سبقت إلى العروبة، وهذا غير صحيح، لأن فكرة العروبة نشأت أولا في الشام والعراق.

فقلت: اسمع، يا صديقي، ثم بلغ إخوانك في الشام والعراق: إن مصر سبقت إلى العروبة من الوجهة القومية أما أنتم فسبقتم إلى العروبة من الوجهة السياسية، والفرق بين الوجهتين بعيد.

فقال: كيف، كيف؟

فقلت: إن الدعوة إلى العروبة من وجهة سياسية نشأت عندكم أولا، لأن فكرة العروبة كان يراد بها التخلص من طغيان الأتراك، ونحن قبل الحرب لم نكن نشكو طغيان الأتراك: لأننا كنا ابتلينا بالاحتلال الإنجليزي، فانصرفت جهودنا كلها إلى مقاومة ذلك الاحتلال، وكان الوطنيون المصريون في ذلك العهد يعطفون على تركيا، لأنهم كانوا

يرجون أن يخلقوا للإنجليز أعداء من الأتراك. وآية ذلك أن المصريين الذين عاشوا في تركيا شاركوا أهل الشام والعراق في العطف على القضية العربية التي خلقت خلقا لمقاومة الغاشمين من سلاطين آل عثمان، وأنتم تعرفون أن القائد عزيز علي المصري باشا وضع الحجر الأول في بناء القضية العربية وهو في استامبول. ويجب أن تعرف أيها الأخ أن فكرة العروبة كانت ذات وجهين: أحدهما مقنع وثانيهما صريح، أما الوجه المقنع فهو وجه المأجورين الذين كانوا يملئون جيوبهم بالدنانير الإنجليزية ليحاربوا الأتراك باسم العروبة، وأما الوجه الصريح فهو وجه الأشراف من أهل الشام والعراق، وهو وجه الرجال الذين آمنوا بوجوب الدعوة إلى إنشاء إمبراطورية عربية تعيد بناء الإسلام والعروبة على أساس متين.

وأنتم في العراق جهلتم ما أحيط بتلك القضية من دسائس فشبه لكم الخطأ بصورة الصواب، واتهمتمونا بالتخاذل عن نصرة القضية العربية، ولو اطلعتم على السرائر لعرفتم ما نحن عليه من الصدق والإخلاص.

- هذا كلام نفيس جدا، ولكن كيف سكتم عن إعلانه إلى هذا اليوم؟

- إن المصريين أجهل الناس بالسياسة، وأكثرهم يتوهم كما توهم سعد زغلول أن الحق فوق القوة، وأنه سينتصر ولو بعد حين، هل تصدق أيها الأخ أن الحكومة المصرية ليس فيها موظف مسئول عن تعقب ما يقال عنها في الشرق؟ هل تصدق أن الحكومة المصرية تُصدر على حسابها بعض الأعداد من الجرائد الأوربية والأمريكية للتحدث عما وصلت إليه مصر في ميادين العلم والاقتصاد ولم تفكر مرة واحدة في أن تُصدر على حسابها عددا من الجرائد العراقية أو السورية أو اللبنانية؟ إن مصر تعتمد

على أصدقائها في الشرق، ولكن فاتها أن حراسة الغنم أسهل من حراسة الأصدقاء!

لو كانت الحكومة المصرية تعقل لنشرت كتابا تبين فيه ما صنعت في خدمة العروبة من الوجهة القومية.

فقال الرفيق العراقي: ولم لا تصدر أنت هذا الكتاب؟

فقلت: أنا مشغول عن السياسة بالحديث عن الملاح!

- وكيف تشغل بالحب عن السياسة؟

- لأن الحب هو الذي نبه العرب إلى خطر الطغيان.

- وكيف؟

- لأن أبيات سيدنا عمر بن أبي ربيعة رضي الله عنه هي التي بصرت الرشيد بمواقع الرشد، وهل تنبه الرشيد بمواقع الرشد، وهل تنبه الرشيد إلى واجبه في صيانة العروبة إلا حين غنته إحدى الجواري قول فتى قريش:

ليت هندًا أنجزتنا ما تَعِدْ ... وشَفَتْ أنفسنا مما تجدْ
واستبدت مرةً واحـــدةً ... إنما العاجز من لا يستبد

- ولنفرض أنك عقلت، فما الذي كنت تقول لتثبت أن مصر سبقت إلى فكرة العروبة من الوجهة القومية؟

- كنت أقول: إن مصر أول بلد عربي حمل راية النهضة في العصر الحديث، وقد نقل المصلح الكبير محمد علي من حال إلى حال، فقد كان

محمد علي باشا الكبير تركيا وكان يتمنى بالطبع لو استطاع تتريك مصر، ولكنه رأى ذلك يعطل مطامحه الإصلاحية، فتعرب هو ليخلق من مصر دولة عربية ينافس بها قومه من الأتراك، وقد رأيتم أن جلالة الملك فاروق نسي لغة أجداده من الأتراك مع أن العهد بهم قريب، فحدثني عن بلد استطاع أن يُخضرم ملوكه كما استطاعت مصر أن تخضرم ملوكها الأمناء.

- ولكن مصر تكثر فيها الوشائج الأجنبية.

- لأن الله عز شأنه جعل صلة الوصل بين الشرق والغرب، ومن حسن الحظ أن يكون لنا هذا النصيب من عناصر النبوغ والعبقرية.

- ولكن هذا يقدح في المصرية.

- وهل كان هارون الرشيد عراقيا وهو صاحب الفضل الأكبر على العراق؟ وهل كان عبد الرحمن الداخل أندلسيا وهو صاحب الفضل الأكبر على الأندلس؟ وهل كان المعزّ مصريا وباسمه بُنيت القاهرة؟

وهل كان فيصل عراقيا وأنتم ترونه مؤسس العراق الجديد؟ وهل كان نابليون فرنسيا وبأمجاده وحروبه تعطر تاريخ الفرنسيس؟

إن «المانجة» فاكهة هندية الأصل، ولكنها حين غُرست في مصر أقامت الدليل على أنها كانت في الهند من الغرباء، والإسلام نشأ في بلاد العرب، ولكنه حين اتصل بمصر عرف أن مصر هي وطنه الأصيل، واللغة العربية نشأت في جزيرة العرب، ولكنها حين استأنست بمصر آمنت بأن العروبة هي من خصائص وادي النيل، والليل المظلم الموحش لم يتوجع منه أحد كما يتوجع المصريون والعراقيون، ولكن المغنين المصريين تفردوا

بالإجادة في ترتيل «يا ليل، يا ليل، يا ليل» وصديقكم الوفي أبوه عربي الأصل وأمه تركية الأصل، ولكنه قيثارة تغرد بمحاسن النيل والفرات.

فكيف تنكرون أن يكون من فضل مصر أن تلتقي فيها حضارة البحرين: بحر القلزم وبحر الروم؟

أحب أن أعرف كيف تنكرون الحق والعراق لم يعرف التضحية بالأنفس والأموال إلا في سبيل الحق؟

- خبلتني، خبلتني!!

- إن مصر تريد أن تريح العالم العربي من وباء الجنسيات.

- إيش لون؟

- لم يرتفع العرب والمسلمون إلا بفضل الثورة على العصبية الجاهلية التي تقوم على أساس الجنس، وياءُ النسب في تاريخ العرب كانت للتمييز فقط ولم تكن للتفريق، فكان يقال بصري وعراقي وموصلي، كما كان يقال إسنوي وباجوري وشنشوري، وكما يقال جامعي وأزهري. إن مرض الجنسية يا صديقي مرضٌ خبيث، وهو قادر على تمزيق الأواصر بين الأمم العربية والإسلامية إن تركناه بلا علاج. إن كثيرا من الشبان المصريين يزورون أوربا وأمريكا ثم يرجعون وفي أيديهم زوجات أوربيات أو أمريكيات، فمتى أرى الشبان الذين يزورون الشرق من المصريين يرجعون وبأيديهم زوجات عراقيات أو سوريات أو حجازيات؟ متى يفهم الشاب المصري أن من الشرف أن يستطيع خلق مودات لوطنه في الشرق؟ أنت يا صديقي تجهل الأسباب التي مكنت العرب من أن يسيطروا على العالم سيطرة أدبية نحو ثلاثة قرون.

- وما هي تلك الأسباب؟

- هي أسباب كثيرة يدركها فلاسفة التاريخ، ولكنها عندي ترجع إلى سبب واحد: هو سلامة العربي المسلم من مرض الوطنية.

- إيش لون؟

- الوطن في عُرف العربي القديم هو داره فقط، وكان العربي يحنّ إلى وطنه يوم كان ضعيفا، فلما أرشده الإسلام إلى أن الوطن الصحيح هو الكرةُ الأرضية مضى يصول ويجول من الشرق إلى الغرب وينشر لغته ودينه في رحاب الأرض.

الرجل العربي هو أستاذ الرجل الإنجليزي، فعن العرب تلقى الإنجليز أصول الرجولة السليمة التي لا تعرف البكاء في سبيل الوطن. كان العربي أنى شرق أو غرب يُقبل على الجد والهزل إقبال الأصحاء، فتراه تارةً في المسجد، وتراه تارةً في الحانة، وهو في جميع أحواله فرحٌ جذلان، وكذلك الإنجليزي ينقل إلى كل أرض أصول البهجة والانشراح فيخلق لروحه كنيسة في كل بقعة، ويخلق لقلبه حانةً في كل مكان.

وكان العرب في بعض مذاهبهم المعاشية أبعد نظرا من الإنجليز، لأن العربي كان يرى من حقه أن يصاهر من يشاء، ومن هنا كان الأدب العربي في أيام ازدهاره أقرب إلى الحياة من الأدب الإنجليزي، لأن الأدب العربي طُعِّم بآداب كثيرة أما الأدب الإنجليزي فهو في الأغلب مصبوغ بصبغة محلية. وأنا أعتقد أن العروبة لن تنهض إلا إذا تخلقت بأخلاق الأسلاف فرحبت بالمصاهرات، وأقلعت عن الطائفية المذمومة التي تجعل من الأمة العربية شعوبا مختلفة المذاهب والميول والأذواق، هل

تصدق أيها الأخ أن المصري حين يعيش في العراق قد يعاني من المتاعب ما لا يعاني الإنجليزي حين يعيش هناك؟

- كيف؟ كيف؟

الإنجليزي يعيش في العراق بلا هموم لأنه لا يُسأل عن شيء غير الواجب الذي ذهب لتأديته في العراق، أما المصري فيُسأل عن أشياء كثيرة: لأن ابتلاء العروبة بالطائفية يجعله هدفا للقيل والقال، ولأن المصري في العراق لا يُسأل أمام العراق وحده، وإنما يُسأل أمام كثير من الأمم العربية، وله الويلُ كل الويل إن غفل عن مراعاة التيارات الحزبية التي تدخل إليه من كل باب، وكان ذلك لأن المصري يدخل العراق وهو يعتقد أنه مصري، ولو اعتقد واعتقد معه الناس أنه عربي لانعدمت تلك المحرجات. فالآفة الكريهة التي تواجهنا في كل وقت هي أننا نحمل أوطاننا في قلوبنا، الأوطان الإقليمية، ولو أننا اكتفينا بالوفاء للوطن الكبير وهو الأمة العربية لعشنا سعداء في كل بلد نحلّ فيه، وقد عاب قومٌ أن ألبس السدارة منذ أول يوم دخلت فيه بغداد، وقالوا: إني أتودد إلى أهل العراق، ولو عقلوا لفطِنوا إلى أن المروءة هي التي قضت بأن أتودد إلى العراق. وهل يغض من قدر الرجل أن يتودد إلى قوم وثقوا به واستقدموه لبعض المناصب العالية؟

هل يكون من العيب أن يقول العراقي: إنه تمصَّر أو أن يقول المصري: إنه تعرَّق؟

وقد عاب عليّ ناسٌ أن أطيل القول في الثناء على أهل العراق، فهل يجب على الرجل أن يشغل نفسه بعدِّ العيوب على من يعرف من الرجال؟

الرجولة السليمة تُوجب على الرجل العربي أن يؤمن بأنه مسئول عن صيانة الأعراض لكل بلدٍ يحل فيه، وقد أكرمني الله بهذا الخُلق فلم أر في العراق غير الجميل، وأرجو أيها الأخ أن لا تروا في مصر غير الجميل.

- إن مصر في أعيننا أجمل من الزهر المطلول.

- هي كذلك في أعينكم لأنكم تنظرون إليها كما ينظر المحب إلى الحبيب، ولولا الحب لرأيتموها صحراء جدباء، فليست مصر إلا بلدا كسائر البلاد فيه الحُسن والقُبح، والخير والشر، والرّشد والغيّ، والهدى والضلال، هي بلد كله محاسن لمن ينظر بعين الحب، والرجل الموفق هو الذي يشغل بصره باجتلاء المحاسن ويتعامى عن العيوب، كما أصنع حين أسير في شارع فؤاد.

- وماذا تصنع حين تسير في شارع فؤاد؟

- أنسى أنه شارع تجاري يقوم على قواعد من مشكلات الحساب، وأتوهم أنه لم يُخلق إلا ليكون معرضا للصباحة والملاحة والفتون.

- أنت إذن من الشعراء.

- وهل في ذلك شكٌ؟ ألم أساير الكواكب في القاهرة وباريس وبغداد؟

***

فرغنا من رحلة سقارة ومن افتراع الأحاديث في الطريق ولم يبق إلا أن نسمع أغاني أم كلثوم بالجامعة المصرية، فماذا رأينا وماذا سمعنا هناك؟

أؤجل تدوين ما شاهدت وما سمعت إلى فرصة قد تسنح بعد حين، ففي صباح الغد سألقي محاضرة في تعريب المصطلحات الطبية، ويجب

أن أستريح. ويكفي أن أقول: إني قبّلتُ الآنسة أم كلثوم أمام جمهور من الناس منهم وزير الصحة، وقد ابتسم وقال: إن هذه القُبلة شفاءٌ من كل داء.

هذا حق.

ولكن تلك القُبلة زادتني جنونًا إلى جنون.

أشهد، يا معالي الوزير، أنني قبلتُ الآنسة أم كلثوم، ولتصنع ليلى ما تشاء!

***

شُغلتُ ليلة الأمس بأم كلثوم وبتحرير ما شاهدت في اليوم الثالث من أيام المؤتمر الطبي، ولم أفطن إلى وجوب النظر في بريد العيد، وقد تركه أهلي فوق المكتب لأتملى بالنظر فيه حين أرجع، فماذا رأيت حين اطلعت عليه في الصباح؟

رأيت خطابا معطرا من ليلاي في العراق، وهي تسأل كيف صبرتُ عنها كل هذه الشهور الطوال؟

كيف صبرتُ؟

الله يعلم كيف صبرتُ؟

لم أصبر عن سُلوان، وإنما صبرتُ عن يأس.

إن حالي في دنياي شبيهٌ كل الشبه بحال الحمام في العراق:

فالحمام في العراق ينوح في كل وقت من قسوة الجو هناك، وهو مع ذلك لا يفكر في الهجرة لأنه يحب العراق، وأنا في مصر أشكو الظلم في كل وقت، ومع ذلك لا أفكر في الهجرة لأني أحب مصر، مصر التي فيها القاهرة والإسكندرية والمنصورة ودمياط وأسيوط وسنتريس. ماذا صنعت ليلى بقلبي؟

لو كنت أعقل لهجرت مصر إلى الأبد لأتخرج في الشعر والفلسفة على يدي ليلاي في العراق.

كانت ليلى تحدثني في كل لقاء عن خطرات قلبها الخفاق، كانت تقول «بعد السهرة الماضية أحسست لذع الضمير لأني صنعت معك كيت وكيت» وكانت تقول «بعد السهرة الماضية أحسست راحة الضمير لأني منحتك كيت وكيت» وكانت تقول «لم أنم بعد السهرة الماضية لأني كنت خرجت في حديثي معك على بعض قواعد الذوق» وكانت تقول: «نمتُ نوما سعيدا في الليلة الماضية لأنك رُحت وأنت راضٍ عني» وكانت تقول: «استروحتُ معنى النعيم بالأمس لأني أهنتُك في داري» وكانت تقول: «كدتُ أقتل نفسي بالأمس لأني كشفت أمام عينيك بعض الحجاب» وكانت تقول: «احترس من رفع الكلفة مع ظمياء لئلا تتوهم أنك تلقاها بما تلقاني» وكانت تقول: «إن ظمياء في حاجة إلى العطف فظللها بجناحيك».

كانت تقول، وكانت تقول، وكانت تقول.

وبفضل ليلى رأيت اصطحاب الأمواج فوق السريرة الإنسانية، ولو بقيتُ في ضيافة ليلى سنتين اثنتين لعرفت الغرائب من أسرار الوجود.

الفرقُ بعيد بين ليلى ومرجريت.

كانت مرجريت تقدم إليّ كل أسبوع كتابا من غُرر المؤلفات الفرنسية لأرى كيف يفهم الرجال سر الحياة.

أما ليلى فكانت تحدثني عما رأت وما أحست وما عرفت وما جهلت.

كانت ليلى تحدثني عن كل شيء، وكنت أرى النور –نور الفلسفة الصحيحة– وأنا أستمع قولها المختلف الأفانين، وكان حديثها أجدى على قلبي وعقلي من ألف كتاب.

وهل أنسى ليلة خرجنا لمشاهدة فلم «يحيا الحب» في سينما الحمراء؟

كانت الرواية في جانب، ونحن في جانب.

كنا في الحقيقة وكانت الرواية في الخيال.

وقد شهدتُ معها أكثر من عشرين رواية سينمائية، فرأت ورأيتُ أن الحياة لم تنبض في قلب عاشقين كما نبضت في قلبي وقلب ليلاي. وكانت –حرسها الحب– تميلُ عليّ من وقتٍ إلى وقت لأنسى ما يعتلج في صدري من هموم وأحزان، كانت ليلى تعرف بوحي القلب أننا قد نفترق إلى غير معاد، لأني كنت أعيش في بغداد عيش الطائر الغريب.

غفرتُ لك يا ليلى جميع الذنوب، وصفحتُ عما اقترفت من مهلكات.

ما الذي كان يمنع من أن تبلُغي غاية العُنف فتنهبيني من أهلي ومن وطني؟

ما الذي كان يمنع من أن نفتضح لنعيد سيرة عمر بن أبي ربيعة مع غادة العراق؟

ما الذي كان يمنع من أن نكون شغل الأفئدة في سائر الأقطار العربية؟

ما الذي كان يمنع من أن أخاصرك سافرةً في شارع الرشيد؟

ما الذي كان يمنع من أن نغرق معًا في دجلة أو في الفرات؟

آه، ثم آه !!

منع من ذلك أنني كنتُ أحمق وأنك كنتِ حمقاء.

اسمعي، يا ليلى، اسمعي.

لقد تشوفتُ إليك تشوف الزهر إلى الندى، وتشوف الساري إلى البدر، وتشوف الخائف إلى الأمان، وتشوف العاشق المهجور إلى طيف الخيال.

أتعجبين من أن أُشغل عنك بليلى المريضة في الزمالك؟

لا تعجبي ولا تغضبي، فقد كُتب عليّ أن أنتقل من هول إلى هول، ومن ليل إلى ليل. فإن آذاكِ أن أُشغل بسواكِ فتعالي إلى ذراعيّ أسبوعا أو أسبوعين، واعلمي يا ليلى أني لن أتركك بلا انتقام إن صبرت عني: سأفضحك في كل أرض، وسأقول: إني قدمت قلبي إلى إنسانة لا تعرف أقدار القلوب. وسأغتاب العراق بلا تهيب. سأقول: إن العراق لا يملك غير ذخائر قليلة من عذاب الأفئدة وشقاء الأرواح، سأقول: إن العراق لم ير وجه الرشيد ولا طلعة المأمون، ولم يأنس بأدب طه الراوي ولم يفرح بأريحية فلان وفلان من الذين عرفتهم في بغداد، سأقول: إن الحبوبي لم يكن من أهل النجف، وسأقول: إن دار المعلمين العالية ليست في بغداد، وسأقول: إن النادي العسكري لا يطل على دجلة، ولا يرى الأمواج المفضضة في الليالي المقمرات، وسأقول: إن الأعظمية لا تعرف العيون

السود، وسأقول: إن الكرادة ليس فيها شعراء شيبيون، وسأقول: إن الجزرة لا يؤكل فيها السمك الحيّ ولا السمك المسقوف، وسأقول: إن ليلى نجدية لا عراقية، وسأنقل هواي إلى ليلى المريضة في لبنان.

***

على روحي أنا الجاني.

كانت ليلى في يدي، وكنت أفرُّ منها كما يفر المريض الجاهل من الطبيب.

جذبتني بيدها ذات ليلة لنختفي من القمر تحت ظلال الأشجار البواسق.

فماذا صنعتُ؟

وقفتُ بجانبها كالتمثال. وكنت من الآثمين.

وتلطفت ليلى فقبلت يدي، فهل فهمتُ مغزى ذلك التلطف؟

إن رأيتك، يا ليلى، مرة ثانية، فسأصنع بك ما يصنع الأسد الفاتك بالرشأ الربيب.

وموعدنا في القاهرة أو في بغداد.

ولكن متى نلتقي في القاهرة أو في بغداد؟

إن حولي ملايين من العيون، وأنا رجلٌ مفضوح النظرات، وله في كل أرضٍ أعداء، فأين السبيل إلى أن أخلو بك أسبوعا أو أسبوعين قبل أن أموت؟

ولا تجزعي، يا ليلى، من أن أكثر من ذكر الموت، فأنا أعتقد أن الدنيا ألأم من أن تسمح بأن أسكن إليك قبل الموت.

كنت تقولين: أنت يا دكتور رجلٌ صيغ من المعاني.

وهذا، يا معبودتي، حق.

ولكن من البلاء أن يكون الله صاغني من المعاني.

فلو كنتُ كسائر الرجال لنسيتُ هواكِ بعد فراق بغداد.

سأموت، يا ليلى، وأنا أهتف باللحظة التي اعتنقنا فيها يوم جن القيظ في مطلع حزيران.

ومن النعيم أن أذكرك بالوجد يوم أموت.

فأرجوك بالله وبالحب أن تجعلي لمحبوبك الغالي قبرا رمزيا بين قبور الصوفية في ضواحي بغداد، فإني أخشى أن يُنسى قبري كما نُسي قبر العباس بن الأحنف ومسلم بن الوليد.

أحبك، يا ليلى، فاذكريني بالشعر والدمع يوم أموت.

متى أراكِ، يا ليلى، متى أراكِ؟

ومتى تسكنين إلى صدري بمصر الجديدة أسبوعا أو أسبوعين، أو لحظة أو لحظتين؟ إن متّ قبل أن أراك فسأكون بإذن الهوى من الشهداء.

***

شغلني خطاب ليلى فلم أصل إلى كلية الطب إلا بعد مضي وقت على انعقاد لجنة المصطلحات الطبية.

كان العشماوي بك رئيس اللجنة، وكنت أعددت خطبة نارية تشبه الخطبة التي أعددتها لمصاولة الدكتور عبد الواحد الوكيل في بغداد، خطبة أسجل بها تهاون الجامعة المصرية في تدريس الطب والعلوم باللغة العربية، خطبة يجزع لها وكيل وزارة المعارف، ويؤرّق بها مدير الجامعة المصرية.

وقد نظرتُ في الخطبة مرات وأنا في الطريق وأضفتُ إليها فقرات تجعلها أحد وأعنف.

وهل يمكن الوصول إلى الإصلاح في مثل هذه البلاد بغير الحِدّة والعُنف.

يجب أن يكون السوط حاضرًا في كل وقت لئلا تهدأ الجياد، جياد الفروسية المصرية.

***

ولكن شاءت المقادير أن تُطوى تلك الخطبة إلى الأبد، فقد وقف الدكتور علي باشا إبراهيم وقال: لا أذيع سرا إذا قلت لكم: إن مجلس الأساتذة قرر في الجلسة الماضية تدريس الطب باللغة العربية.

وبذلك قطعت جهيزة قول كل خطيب!!

لقد ضاعت عليّ الفرصةُ فلم أسمع أساتذة كلية الطب ما يكرهون، ولم أوذِ وكيل وزارة المعارف ولا مدير الجامعة المصرية.

ولكني ظفرتُ بمغنم عظيم سيضاف إلى حسناتي في خدمة القومية العربية، فمنذ خمسة عشر عاما وأنا أخطب فوق المنابر وأكتب في الجرائد والمجلات داعيا إلى تدريس جميع العلوم باللغة العربية في كليات الجامعة المصرية، وقد أسرفتُ في الحماسة لتلك الدعوة أشد الإسراف، فلم يكن رجال المعارف يُصبحون أو يُمسون إلا وأفئدتهم مملوءةٌ بالرُّعب، وأنفسهم فوّارةٌ بالغيظ، ولو جمعتُ ما كتبتُ وما قلتُ في سبيل هذه الدعوة لتألفت منه مجلدات ضخام تقذى بها أعين الحاقدين.

اليوم عرفتُ قيمة الصبر على مكاره الجهاد، فما كنتُ أنتظر أن أفوز في بلد يكره بعض أهله أن يسمع صوت الحق.

اليوم أسجل صفحةً جديدة من صفحات الجهاد في سبيل القومية العربية.

شعرتُ اليوم بنشوة روحية لم أعرف مثلها من قبل، وهل كنتُ أنتظر أن أصل إلى غرضي بمثل هذه السرعة؟

الواقع أني أحسنت تخير الفرصة للدعوة إلى سيطرة اللغة العربية في كليات الجامعة المصرية، فقد قمتُ بهذه الدعوة في وقتٍ كانت فيه مصر مُرهفة الحس، واعية العقل، كريمة الوجدان.

كنتُ أدعو إلى الحق قوما لهم قلوبٌ وعزائم وآمال.

كنتُ أدعو إلى الحق رجالا يتوثبون لتمجيد العروبة المصرية.

فإلى أساتذة كلية الطب أوجه تحيتي وثنائي، وأرجو لهم المزيد من نعمة التوفيق.

وقد ذكرني هذا الفوز بفوزٍ سلف: فأنا أول من دعا إلى أن يكون معلمو اللغات الأجنبية في مدارسنا مصريين لا أجانب.

وقد استقتلت في سبيل هذه الدعوة حتى انتصرتُ، وكانت بشائر النصر إنشاء قسم بكلية الآداب لتخريج مدرسين للغات الأجنبية، وإيفاد بعثات من الشبان المصريين إلى الجامعات الأوربية ليشتغلوا بعد عودتهم بتدريس اللغات الأجنبية في المدارس المصرية.

وهنالك انتصارات كثيرة توجه الله بها جهادي في سبيل القومية العربية تضيق عنها صحائف هذه المذكرات. وما أغراني بالإشارة إلى ذلك حب الثناء، كما يتوهم الغافلون، وإنما أردت أن يفهم جميع الشبان أن الصدق في الجهاد لا يخيب (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون).

***

لم أشترك في زيارة المتحف المصري ولا زيارة دار الآثار العربية، وإنما اكتفيت بشهود رواية مجنون ليلى، وسأدون ملاحظاتي في صباح الغد، لأن حديثي عنها قد يطول، وأحب أن آوي إلى فراشي لأناجي ليلى في الأحلام، إن لم يكن طيفها قد اعتصم بالهجر الجميل.

***

- إيش لون ليلى؟

- عُوفيت ومرض الطبيب.

***

كانت عصرية الأمس من أعجب العصريات، وفيها خفق القلبُ ثم خفق حتى خشيتُ أن يفر من قفص الضلوع، إن كانت فيه بقيةٌ من العافية يستعين بها على النجاة من شرك الحب.

كأنّ القلبَ ليلةَ قِيلَ يُغـدَى ... بليلى العامريةِ أو يُـراحُ
قطاةٌ عَزَّها شَـركٌ فباتت ... تجاذِبهُ وقد عَلقَ الجنـاحُ
فلا في الليل نالتْ ما تُرَجّي ... ولا في الصبح كان لها بَراحُ

وتفصيل ذلك أن وزارة المعارف دعت أعضاء المؤتمر الطبي العربي إلى شهود رواية مجنون ليلى بدار الأوبرا الملكية، وقد رأى سعادة العشماوي بك أن يلقي كلمة يبين فيها كيف اختارت الوزارة هذه الرواية فقال:

«اخترنا هذه الرواية لسببين: الأول أنها من نظم أمير الشعراء شوقي، وكان رحمه الله شاعر العروبة والإسلام، وهو الذي قال:

كان شعري الغناءَ في فرح الشرقِ ... وكان العزاءَ في أحزانِهْ

أما السبب الثاني فهو رغبة وزارة المعارف في أن تستهدي بآرائكم في مشكلة الحب: فقد عُقد مؤتمر السنة الماضية في بغداد لمداواة ليلى المريضة في العراق، ومؤتمر هذه السنة عُقد بالقاهرة لمواساة الطبيب الذي عرفتموه في بغداد، وفيه مشابه كثيرةٌ من المجنون، ويهمني أن أخبركم أن معالي الدكتور هيكل باشا يسره أن توفقوا إلى حل حاسم لمشكلة الحب، وقد اعتذر عن الحضور لأنه يقضي أيام العيد في أسوان، وسأبلغه آراءكم بالتفصيل».

وقد قوبلت هذه الكلمة الوجيزة بالإعجاب، ولكن أزعجني أن يجهل بعض الأطباء شخصية الطبيب الذي أشار إليه وكيل وزارة المعارف.

فما معنى ذلك؟

معناه أن في الناس من يشتركون في المؤتمرات للنزهة والسياحة بدون أن يعرفوا الغرض من عقد المؤتمرات، ألم أسجل من قبل أن أحد الأطباء البولونيين، كان يظن أن «ليلى» اسم لبعض الأمراض؟

وقد وقع شيء من ذلك في هذه السنة فقد ظن بعض أعضاء المؤتمر أن «طبيب ليلى» شخصية معنوية يُراد بها الطبيب الحيران.

وأعوذ بالله من الجهل!

إن ليلى -يا بَني حواء- امرأة جريحة القلب تقيم في بغداد، وطبيب ليلى -يا بني آدم- رجلٌ مفطور الفؤاد يقيم في مصر الجديدة، فكيف غابت عنكم هذه الحقائق وأنتم أطباء؟

***

ثم رُفع سِتار المسرح ليشهد النظارة فجيعة المجنون.

ورفعتُ أستار قلبي لأشهد فجيعتي في هواي.

وأين حظي من حظ المجنون؟

كان المجنون يحب «ليلى» واحدة بسبب احتجازه في البيداء.

أما أنا فصريعُ الليليات في الحواضر والبوادي.

كان المجنون يقرأ صفحة واحدةً من كتاب الوجود.

أما أنا فأطالع جميع الصحائف من أسفار الوجود.

وهل أتيح للمجنون أن يهيم حول شواطئ النيل والسين وبردى ودجلة والفرات؟

هل أتيح للمجنون أن يشهد ليالي الجنون في القاهرة وباريس وبغداد؟

هل أتيح للمجنون أن يعاني من بلاء العقل ما أعاني؟

إن المجنون كان يخاطب ليلاه فيقول:

وقد يُبتلَى قـــــــومٌ ولا كبليتي ... ولا مثل وجدي في الشقاء بكم وجدُ
غزتني جنود الحب من كل جانبٍ ... إذا جان من جُندٍ قُفُولٌ أتى جـــندُ

أما أنا فلا أدري من أخاطب: لأني أصبحتُ وترًا من أوتار القيثارة الوجدانية، ولأن قلبي مشدودٌ إلى القوة الكهربائية التي تربط الوجود كله برباطٍ وثيق.

كان قيس في جنونه يدرك أن في الدنيا أنوارًا وظلمات، أما أنا فلا أعرف الفرق بين الأنوار والظلمات، لأن الهوى محاني ومحا وجودي فلم أعُد أدرك كيف يُظلم الليل أو كيف يُشرقُ الصباح.

وأنا مع هذا الخبال مسئول أمام قوانين الوجود.

فأنا أعظم نكبةً من قيس لأن بلاءه كان أخف من بلائي.

خرج قيس من دنيا العقل فاستراح.

وبقيتُ في دنيا العقل فابتليتُ بأعنف فنون الجنون.

***

أما بعد فما أريد أن أنتظر قرار الأطباء في فض مشكلة الحب كما تنتظر وزارة المعارف، فإن الأمر لا يزال عند قول الشريف:

دعَوا لي أطباء العراق لينظـــروا ... سقامي، وما يعنى الأطبـاء في الحبّ
أشاروا بريح المندل اللدن والشذا ... وردّ ذِماءِ النفس بالبارد العذب
يطيلون جَسَّ النابِضَينِ ضـــلالةً ... ولو علموا جسُّوا النوابض من قلبي

آه، ثم آه!!

سيرجع الأطباء إلى بلادهم صحاح القلوب، وسيطول حديثهم عما رأوا في القاهرة وضواحي القاهرة من حُسن وفتون.

وسأبقى في بلائي وهُيامي.

سأتحسر أبد الدهر على ما ضيعتُ من شهوات القلب يوم كنتُ في بغداد.

أنا، يا ليلى، عليل.

فإلى صدري وقلبي وروحي، يا سمكة الفرات.

أما واللهِ لو تجدين وجدي ... جَمَحتِ إليّ خالعةَ العذارِ

إن ضممتك إلى صدري مرةً واحدةً قبل أن أموت فسأصير قيثارةً تتغنَّى بالحمد والثناء على فاطر الأرض والسموات.

وإن حُرِمتُ نِعمةَ الأنس بروحكِ الشفاف فسأتمرد على خالق السِّحر في العيون.

رباه!

أنقذني من كرب الشك في كرمك، فأنا أستحق منك كل عطف، لأني أصدق من خلقت من عقلاء المجانين.

***

انتهى اليوم بخير: فلم أُغرق نفسي في النيل عند القناطر الخيرية، ولم أقتل نفسي في فندق مصر الجديدة. وحياتي مع ما أعاني في سبيل المجد والحب أعجوبة من الأعاجيب.

***

مضيت مع الضيوف إلى القناطر الخيرية، وأنا أعرف هذه القناطر منذ الطفولة لأنها في منتصف المسافة بين القاهرة وسنتريس.

وصلتُ إلى هناك وأنا أدمدم بقول ابن النحاس:

كم أداوي القلبَ قلَّت حيلتي كلما داويتُ جُرحًا سال جُرحُ

فالقناطر الخيرية أجمل بقعة في الأرض، وليس لها نظير في مشرق ولا في مغرب، وبسببها مات الشيخ سيد درويش: فقد وقذه حسنها الفضاح وهو يلحن رواية «هُدى» فلم يرجع من هناك إلا وهو في علة الموت.

***

هنالك تذكرت الإنسانة الغادرة التي اقترحت أن نؤجل فرصة الهُيام فوق سدة الهندية إلى أن نلتقي فوق القناطر الخيرية، وقد وعدتْ بتحقيق هذا الأمل العذب يوم عُقِد مؤتمر فلسطين بالقاهرة، ثم أخلفت. عليها وعلى جميع بنات حواء أشنع اللعنات!

وهنالك تذكرت أن القناطر الخيرية أنشئت بسواعد الأمة كما أنشئت الأهرام بسواعد الأمة، فعرفتُ لماذا سموها القناطر الخيرية.

وهنالك سألت الله أن يُمدّ في عمري إلى أن أعاني طغيان الحب في موسم طغيان النيل.

وهنالك ظهرتُ في عدة صور فيها وجوهٌ من مصر والشام والعراق.

وهنالك صافحتُ فتاةً من دمشق وطن ...

وطن مَن؟

لا أريد أن أفضح نفسي وقد سترني علام الغيوب.

***

ثم نُصبتْ موائد الشاي.

وبعد ذلك أعلن الدكتور عبد الواحد الوكيل أن هذه الحفلة أقامها سعادة الأستاذ أحمد لطفي السيد باشا مدير الجامعة المصرية، وأن الدكتور عبد الوهاب عزام سيلقي كلمة الجامعة.

فما الذي قاله ذلك الخطيب؟

قال: إنه يتكلم باسم الجامعة وباسم مصر.

وما كاد يفرغ من خطبته حتى هتف الجمهور:

الدكتور زكي مبارك، الدكتور زكي مبارك، الدكتور زكي مبارك.

فوقفتُ وقفة الأسد الغضبان ثم قلت:

إن الدكتور عبد الوهاب عزام تكلم باسم الجامعة وباسم مصر فلم يبق إلا أن أتكلم باسم العراق.

وعندئذ تقدم الدكتور سامي شوكت فوضع سدارته فوق رأسي، فكانت تلك السدارة تاج العافية.

أيها العراق.

أنا أحبك، وأشتاق إلى سعير الوجد في بغداد.

أيها العراق.

متى تُقضَى ديوني عند نخلات البصرة وسنابل الموصل وسمكات الفُرات؟

متى؟ متى؟

إن بلائي بالشوق سيطول.

***

وفي مساء اليوم أقيمت حفلة العشاء في فُندق مصر الجديدة.

فما الذي وقع؟

وقع ما سمّوه شُرب الأنخاب!

وشُربُ النّخب هو أن يرفع الحاضرون كئوسهم بأسماء مختلفات.

وقد شربوا نخب جلالة الملك فاروق الأول وأنخاب الأقطار العربية.

ولكن الكئوس لم يكن فيها غير الماء!

فضحتمونا يا ناس!

ينبغي لأهل مصر أن يختاروا واحدًا من اثنين: الرّي أو الجفاف.

إن شرب الخمر يعدُّ في مصر من المنكرات، ولكن شرب الأنخاب مقبول، فكيف غاب عن أهل مصر أن «خيال» الشراب يذكر «بحقيقة» الشراب؟

أتريدون الحق؟

إن أهل مصر يصطنعون المزاح في بعض الأحيان!

***

ومال عليّ الدكتور عبد الأمير علاوي وهو يقول:

ألا تذكُر أن الخمر كانت في مؤتمر بغداد أرخص من الماء؟

فقلت: لأن صحافة القاهرة أطولُ لسانا من صحافة بغداد!

فقال: وكيف؟

فقلت: لو أن الجمعية الطبية المصرية سمحت بشرب الخمر كما سمحت الجمعية الطبية العراقية لنشرت ذلك صحافةُ القاهرة تحت إطارٍ من السواد!

فقال: وهل يسلم الصحفيون عندكم من غول الصهباء؟

فقلت: إن الصحفيين عندنا يقتصدون في الشراب، والرجل من عقلائهم لا يشرب في اليوم الواحد أكثر من عشرة أكواب!

فقال: وما ذنبنا نحن حتى نعيش في القاهرة عيش الجفاف؟

فقلت: سأسقيك حتى تغفر ذنوب القاهرة يا شيطان!

ومضيتُ فأتحفته بثلاثة أكواب من شراب الزنجبيل في القهوة التي أقضي فيها سهرات الصيف.

***

كانت خُطب هذا المساء تفوقُ العدّ، ولم أعِ منها غير خطبة الدكتور عبد الرحمن عمر، وخطبة الدكتور سامي شوكت، وخطبة الأستاذ عبد المنعم رياض، وقصيدة الدكتور إبراهيم ناجي.

وقد طالت الخطب ثم طالت حتى قال العشماوي بك: لم تُبقوا لنا شيئا نقوله في مؤتمر الثقافة العربية!

***

انتهى المؤتمر وانقضت أيامه، فهل واساني؟

كان هذا المؤتمر يملك وسائل المواساة، لو كنت أصلح للمواساة، وكيف أقبل المواساة ودائي في الحب داءٌ عُضال؟

لن أصل إلى العافية إلا يوم يفهم قومي أن لعلتي وصفا غير الذي يعرفون.

أنا أعيش في الشرق عيش الأذلاء، لأن أهلي في الشرق ليسوا أعزّاء.

سأُحس روح العافية يوم أشعر أن الشرق للشرقيين وأن أهل الغرب لا يعيشون في الشرق إلا عيش الغرباء.

سأحس روح العافية يوم أشعر أن الشرق خلا من المنافقين والمخادعين.

سأحس روح العافية يوم أشعر أن اللغة العربية تحاول تعريب الغرب مرة ثانية كما صنعت في عهد بني أمية وعصر بني العباس.

إن الشرق العربي والإسلامي يملك أخصب بقاع الأرض ويسيطر على أعظم البحار، فمتى نعيد سيرة الأسلاف، ومتى يكون للعروبة الإسلامية علمٌ واحدٌ يلقي الرعب في صدور الأعداء؟

إن ذلك لا يتمُّ إلا يوم نتسامح بالأخلاق.

وما هي الأخلاق؟

أنا أعيذ الشرق من أخلاق العبيد، الأخلاق السلبية التي تنحصر في البعد عن آفات الشهوات، وإنما أريد له أخلاق الفحول، الأخلاق الإيجابية التي تفرض عليه أن يحب الحياة ليكافح في سبيل الحياة.

«وفي ذلك فليتنافس المتنافسون».

***

وإلى اللقاء في ساحة المجد المنيع، المجد الذي عرفته جيوش قرطبة والقاهرة وبغداد، يوم كنا أقطاب السياسة والقوة في المشرق والمغرب، ويوم كنا أساتذة الممالك والشعوب.

أما بعد فقد آن للقلم أن يستريح بعد هذه الأشواط الطوال، فقد ابتدأت في تدوين هذه المذكرات في الشهر التاسع من سنة ١٩٣٧ وانتهيت منها في الشهر الثالث من سنة ١٩٣٩، وبذلك أكون شغلت نفسي بحديث ليلى سبعة عشر شهرا، أو تزيد. فما الذي جنيتُ من سهر الليالي في تدوين هذه المذكرات؟

غنمتُ أشياء، وخسرتُ أشياء.

غنمتُ الإيمان بالشرف، فلولا تصوني وعفافي وأمانتي في حب ليلى لخمدت وقدةُ الشوق منذ أول يوم تلاقينا فيه، ولو خمدت تلك الوَقدة لاندثرت جميع المعالم من ذلك التاريخ الجميل.

وغنمتُ الإيمان بالقلب، فقد عرفتُ كيف استطاع قلبي أن يحيلني إلى قوةٍ روحية قليلة الأمثال.

وغنمتُ الإيمان بالصدق، فبفضل الصدق بكت ليلى في داري بكاء الحنان يوم كنتُ في بغداد.

وغنمتُ الإيمان بالحب، فبفضل الحب صرتُ شُغل الأفئدة في جميع الأقطار العربية.

***

وخسرتُ أشياء:

خسرتُ السلامة من سماجة المتقولين وسفاهة العذَّال.

وخسرت الراحة من كمد القلب وعذاب الروح.

وخسرتُ الفضيحة في حب ليلى، لأنني كنت مع الأسف من عقلاء المجانين.

***

أيها القمر الذي يملأ أرجاء مصر الجديدة في شهر المحرم، أيها القمر، أيها القمر، بلغ ليلاي في بغداد أني أعاني آلام الكتمان، بلغ ليلاي أن سري لا يزال مكتوما بعد هذه المئات من الصفحات.

وآه ثم آه من عذاب الكتمان!

كان غرامي بك يا ليلى قدرا من الأقدار، وكان مكتوبا خط بالدمع على أسارير الجبين. وكم توقرتُ يا ليلى لأصد الجوى عن قلبك الخفاق.

فإن كنتُ ضيعت عليك فرصة الفضيحة في غرامي فقد حفظتُ لك نعمة الصيانة من أراجيف السفهاء، وذلك أجمل ما تظفر به القلوب والنفوس، في زمن يكفُر أهله بشريعة الحب أبشع الكفران.

***

ولو كنتُ كتمت هواي عن الناس وحدهم لخفّ الأمر وهان، ولكني كتمتُ هواي عن ليلاي وضللتها أشنع تضليل، فهي لا تعرف اليوم مواقع هواي، ولا تفهم أني مفتونٌ بها أعنف الفتون.

سألتني ليلاي ذات مساء: أنا ليلاك يا دكتور؟

فأجبت: علمُ ذلك عند علام الغيوب.

وكان ذلك لأني كنتُ ألزم الأدب حين أراها مع أني أفضح نفسي فيما أنشر بالجرائد والمجلات، فهي تتوهم أن هواي عند غيرها من الليليات، وما أكثر أوهام الملاح!

ومَن ليلاي في العراق؟ مَن ليلاي في العراق؟

هي ليلاي في العراق، هي أم العينين السوداوين، هي الإنسانة التي كانت تشتهي أن تكون نور بيتي في بغداد، هي الإنسانة التي اقترحت أن نغرق معًا في دجلة أو في الفرات.

وليتنا غرقنا معًا في دجلة أو في الفرات.

***

كتمتُ هواكِ، يا ليلى، فهل تكتُمين هواي؟

أنت الآن مضللة أعنف تضليل: لأني حرّفت هواي فيك أعنف تحريف.

فأرجوك بالله وبالحب أن تؤمني بأني لم أتحدث عنك بحرفٍ واحد في هذه المذكرات الطوال.

إن عِرضي في يديك، يا محبوبتي الغالية.

وعرضك في يدي، يا محبوبتي الغالية.

وسترى الأيامُ أينا أحفظ للعهد، وأكتم للسر، وأعرف بالوفاء.

ليلاي.